الإشارة

إلى أدب الوزارة

للوزير المؤرخ
لسان الدين ابن الخطيب السلماني

دراسة وتحقيق
الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الإشارة

إلى أدب الوزارة

للوزير المؤرخ

لسان الدين ابن الخطيب السلماني

دراسة وتحقيق

الدكتور محمد كمال شبانة

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد ـ القاهرة

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ ـ فاكس: ٥٣٦٢٢٧٧

الطبعة الأولي

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٣٦ ش بورسعيد - الظاهر ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

رقم الايداع	٢٠٠٣/١٢٦٣٩
I.S.B.N الترقيم الدولي	977 - 341 - 105 - 2

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة المحقق

لقـد تـناول بعـض المـؤرخين والباحـثين مـن العـرب موضـوع "الـوزارة" كمنصـب سياسـي تضمنه نظـام الإدارة فـي الاسـلام، وافـردوا لهـا مـؤلفات مستقلة، تضمنت ابحاثـًا حـولها ودراسـات، فمـن هـؤلاء الجهشـيارى أبـو عـبد الله محمـد بـن عـبدوس، المتوفـى سـنة ٣٣١هـ / ٩٤٣م فـي مـؤلفه " كـتاب الـوزراء والكـتاب"[1]، وهـلال الصـابئ أبـو الحسـن بـن المحسن بـن أبـى إسـحاق إبـراهيم الكـتاب، المتوفـى سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م فـى كـتابه " تحفـة الأمـراء، فـي تـاريخ الـوزراء"[2]، وابـن مـنجب أمـين الـدين تـاج الرياسـة أبـو القاسـم ابـن علـى، المتوفـى سـند ٥٤٢هـ/ ١١٤٨م، فـي مـؤلفه "الإشـارة إلى مـن نـال الـوزارة"[3]، ومـن هـؤلاء أيضـاً عمـارة اليمن أبـو الحسـن نجـم الـدين المتوفـى سـند ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م فـى مـؤلفه "كـتاب النكت العصرية، في أخبار الوزراء المصرية"[4] وغيرهم من الكتاب.

كمـا تحـدث عـن فـن "السياسـة" عامـة كـثيرون مـن القدامـى والمحـدثين كتخطـيط للدولـة وتنظـيم لأمـورها فـى شـتى نواحـيها، فمـن هـؤلاء ابـن قتيـبة أبـو محمـد بـن مسـلم المتوفـى سـنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م، فـي كـتابه "الإمامـة والسياسـة"[5] وابـن تيمـية

---

(١) نشـرة الاسـاتذة - مصطفى السقا، وإبراهيم الابيارى، وعبـد الحفيظ شلبي (القاهرة ١٩٣٨م).

(٢) طبعة هـ . ف امدروز، وذيله الناشر بفهرس ومذكرات.

(٣) طبع القاهرة ١٩٢٤م.

(٤) نشرة هارتوج ديرانبور (باريس ١٨٩٧م).

(٥) وهو جزءان، وينسب أيضًا إلى كاتب أندلسى، وقد طبع بالقاهرة عام ١٣٢٢هـ

أبو العباس أحمد المتوفى سند ٦٦١هـ فى مؤلفه "السياسة الشرعية، فى إصلاح الراعى والرعية"[(١)]

ويدلى لسان الدين ابن الخطيب ـ بعد هؤلاء ـ بدلائه فى هذا الشأن وهو الذى تمرس بأساليب الحكم، وتقلب فى دواوين السلاطين، فخبر عن قرب فن الساسة والسياسة، حيث تولى منصب الوزارة فى بلاط السلطان يوسف الأول بن إسماعيل النصرى (٧٣٣هـ - ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣م - ١٣٥٤م) كما وزر لابنه من بعده الغنى بالله محمد الخامس (٧٥٥هـ -٧٦٠هـ/١٣٢٤م-١٣٥٩م). وهى فترات خصبة من تاريخ الإسلام بالأندلس، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، فعالج وزيرنا الأمور، بحيث ترك بصماته واضحة فى هذا الميدان على الصعيدين الداخلى والخارجى، حين كانت دولة غرناطة محصورة فى الجزء الجنوبى من الاندلس، تتناولا ايدى الفتن، داخل المملكة، ويسيل لها لعاب مملكتى قشتالة وأراجون المتحدثين، ليتوجا حروب الاسترداد باسقاط غرناطة فى النهاية. فلا عجب أن لعب ابن الخطيب دوره كساسى فى مساندة المملكة النصرية، والعمل جهده للحفاظ على كيانها. فكان جديرا بان يتصدى للحديث عن هذا المنصب الخطير بدوره.

وهكذا نرى لسان الدين يثرى المعرفة الإنسانية فى هذا الجانب السياسى، إذ يكتب عن "الوزارة" هذه الرسالة التى نقوم اليوم بتحقيقها :هكذا فى هذا الإطار لاول مرة، وهى:

---

(١) تحقيق الأستاذين: محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور (القاهرة ١٩٧٠م).

والكتاب منهج وهدف، قصد به المؤلف إصلاح حال مجتمعه من الفساد والانحلال أثر الحروب الصليبية، فقد رأى ابن تيمية فساد الولاة واختلافهم، وسوء اختيارهم لعمالهم، كما قدم فى الكتاب نموذجاً للحكم فى الإسلام، متأسياً بأنه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أمر أولها، وقد عنى فى هذا المجال بالقواعد العامة، أو كما يقول: "وإنما الغرض ذكر الجمل الجامعة، وهو فى ذلك يحتكم إلى الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ولا يلتزم بمذهب معين" راجع المقدمة لهذا الكتاب.

"الإشارة إلى أدب الوزارة"

تلك التي صاغها في صورة من خبير انفق جل حياته في هذا الميدان.

لقد تحدث عن قدر رتبة الوزارة في الأقدار، وبعض شروط الاختيار وعقد لذلك ثلاثة فصول، وأوصى في هذا بأنه لا بد من "أركان" فصلها في ستة، ففي الأول: ساق لنا ما يستشعره الوزير بينه وبين نفسه، وفي الثاني: ذكر ما يستشعره الوزير مع الملك، وفي الثالث: شرح ما ينبغي أن يحذره الوزير في الامور حيال الملك، وفي الرابع: صنف أخلاق الملوك "للسير بمقتضاها والسلوك"، وفي الخامس تحدث عن "سيرة الوزير مع من يتطلع إلى هضبته، ويحسده على رتبته" أما الركن السادس والأخير: فقد خصصه للحديث "فيما تساس به الخاصة والبطانة، وذوو الدالة والمكانة" واعقب هذا بتوجيه غاية في الأهمية عندما خاطب الوزير بقوله: "لتختم يومك بالطهارة والعفة، والحلم والرافة، واعتدال الكفة، وليهون عليك النصب والوصب، والعمر المغتصب، أنك مهتد بهدى ربك الذى يرعاك، وينجح مسعاك، ويثبتك على ما إليه دعاك".

والرسالة في الجملة حصيلة الخبرة الثقافية ثم الخبرة السياسية، فجاء مؤلفه هذا لم يترك شاردة أو واردة إلا أتى عليها نصاً وتقييدًا، ضارباً للأمثلة هنا وهناك، معززاً كل هذا بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة.

أما رسالته في "السياسة" فقد صاغها على هيئة مقامة، أبطال الرواية فيها من رجالات التاريخ ممن طارت لهم شهرة مثل هارون الرشيد لإعداد هذه المقامة، وقد تحدث من خلال القصة عن دعائم سياسة الدولة، وركائز الملك، فذكر الوزير، ثم "الجند" ثم "العمال" ثم "الخدم" ثم "الحرم" أخيرا[1].

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن رسالة "السياسة" هذه أوردها الأستاذ محمد عبد الله عنان ضمن مؤلفه عن ابن الخطيب، بعد أن رجع إلى مخطوطة واحدة من الريحانة (الاسكوريال ١٨٢٥) وقد رجعنا بدورنا إلى أكثر من مخطوطة كما سيلمس الباحث.

راجع: عنان فى "لسان الدين ابن الخطيب" من ٣٧٠ – ٣٨٨) القاهرة ١٩٦٨م لتحقيق ودراسة الرسالة.

وفي نهاية المطاف نرى المؤلف يسدى النصح خالصاً للملك، وذلك فيما ينبغي له ان يتحلى به من صفات تجعله أهلا لما تقلد.

حقا، إن حياة ابن الخطيب على امتدادها قوة بالغة العطاء، فقد منح المعرفة الإنسانية الشيء الكثير، وبذل من نفسه وعلمه لوطنه الأندلس والمغرب في مجال السياسة والثقافة، فضلاً عن قصة حياته نفسها التي تمثل مرحلة هامة من مراحل الصراع على السلطة، والذى كان طابع التاريخ الإسلامى في العصور الوسطى.

ولقد كتب عن ابن الخطيب الكثير من الدراسات التي تحلل أعماله السياسية والثقافية، وتدرس ظروف حياته، وأثر ذلك على إنتاجه، وكل هذه الأبحاث في مجموعها تعطينا صورة متكاملة عن المؤلف وعصره.

هذا، ولقد أورد المؤلف رسالتيه "الإشارة إلى أدب الوزارة" و"مقامة السياسة" ضمن مؤلفه الكبير "ريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب" والذى ما زال في مجموعه مخطوطا لم يحقق بعد ككل، وقد اقتضت طبيعة تحقيق هاتين الرسالتين أن نرجع إلى "الريحانة" في كافة مظان وجودها جهد الاستطاعة، وذلك في كل من المغرب وتونس والجزائر والقاهرة وأسبانيا وروما على النحو التالى:

١ ـ نسختان بدار الكتب القاهرة.

الأولى: يوجد منها الجزء الأول وبعض الجزء الأخير فى مجلدين، وبخط مغربى، فى ثناياها ثقوب ونقص واضطراب. وهذان الجزءان مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس، ويقعان فى ٣٠٩ لوحة، مسجلين برقم ١٩٨٧٥ز.

الثانية: بها نقص يسير من الخطبة، أولها بعد الديباجة: "وسميته لتنوع بساتينه المنشوقة وتعدد أفانينه المعشوقة، بريحانه الكتاب، ونجعة المنتاب".. الخ، وتقع هذه النسخة في مجلدين كتبا بخط النسخ، وقد نقلا عن الجزأين المخطوطين المقيدين بدار

الكتب المصرية برقم ٤٢٤ أ د ب س، ويقعان في ٤٦٠ — ٦٥٠ صفحة، مسطرتها ٢١ سطراً، وقد سجلا تحت رقم ٣٤٥٩ز ،قد اتخذنا لهذه النسخة في التحقيق الرمز "د".

٢ ـ نسخه الاسكوريال بمدريد

وهي مسجلة برقم ١٧٧٧ من فهرس الغزيري، وهي نسخة جيدة للغاية، بخط أندلسي باهت، وتقع في ٢٨١ لوحة كبيرة، أعني ٥٠٢ صفحة ٢٧ سطرا، وفي كل سطر ١٢ كلمة في المعدل العام. وقد ذكر في نهاية هذه النسخة أنها كتبت سنة ٨٨٨هـ. وقد رمزنا إليها خلال البحث بالرمز " أ ".

٣ ـ جزء مخطوط بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما، مكتوبة بخط مغربي، وهي عبارة عن السفر الثالث من "الريحانة" وعدد لوحاتها ١١٩ لوحة كبيرة. مسجلة برقم ٢٥٢.

٤ ـ قطعة مخطوطة أخرى في مكتبة الجزائر الوطنية من "الريحانة" تشتمل على ١٨١ لوحة مزدوجة من القطع الكبير، مكتوبة بأكثر من خط معظمه قديم، والبعض منها ـ ولاسيما الوسط ـ قد اكمل مؤخرًا، أو بتاريخ احدث، وهذه النسخة تشتمل على النصف الثاني والاخير من "الريحانة"، حيث تبدأ بالفصل الذى يحمل عنوان "جمهور الأغراض السلطانيات"، ويغلب على الظن أن هذه النسخة هي أقدم جزء من المخطوط رقم ٢٠١٠. وقد احتوى هذا الجزء ـ ضمن ما احتوى ـ كتاب "الإشارة إلى أدب الوزارة، ومقامة السياسة" موضوع الحديث، وقد رمزنا إليها بالرمز "ج".

٥ ـ وفي خزانة القرويين بفاس قطعتان من "ريحانة الكتاب".

الأولى: تضم السفرين الرابع والخامس، وتقع في ٩٩ لوحة مزدوجة من القطع الكبير، في كل نسخة منها ٢٧ سطراً، وقد كتبت بخط مغربي، وفي نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها، وهو يوم الأحد قبل الزوال عام تسعة عشر ومائة وألف (لم يذكر تاريخ اليوم أو الشهر) وهي برقم ٤٠ — ٥٦٥، ورمزها "س" في تحقيقنا.

أما القطعة الثانية: فهي برقم ٣٠١١، وتنطبق عليها نفس أوصاف الأولى ولا سيما الخط.

٦ ـ أما فى الخزانة العامة بالرباط (قسم المخطوطات والمحفوظات) فتوجد عدة نسخ من "الريحانة"، أظهرها وأشهرها النسخة الكتانية المسجلة برقم ٣٣١ك، وهى عبارة عن مجلد ضخم يتألف من ٦٠٩ صفحة من القطع الكبير، وفى كل صفحة ٢٥ سطرا،قد كتبت بخط مغربى واضح، وبها زيادات حديثة، أغلب الظن أنها ليست من إنشاء ابن الخطيب ولا سيما الجزء الخاص بذكر ملوك بنى أمية والخلفاء من بنى العباس، وهو غفل من تاريخ كتابته، أما النسخة الأساسية للريحانة فتقع فى ٥٩٩ صفحة، وقد رمزنا إليها بالرمز "ك". وتوجد بنفس هذه الخزانة ـ غير التى ذكرنا ـ سبع نسخ من "الريحانة" قد اشتمل معظمها على "الإشارة" و"مقامة السياسة" وهى كما نذكر:

أولها: نسخة كاملة عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط، ويشتمل أولها على ٢٢٢ لوحة، مكتوبة بخط مغربى واضح، والمجلد الآخر عبارة عن ٢١٥ لوحة من نفس الحجم، وقد كتبت بنفس الخط المغربى الواضح.. وهذه النسخة بمجلديها مسجلة برقم ٢١٩٥ بالمكتبة الملكية، وقد رمزنا إليها بالرمز "ل" أثناء التحقيق.

وثانيها: عبارة عن النصف الثانى من "الريحانة" وهى نسخة تحتوى لوحاتها ١٤٥ لوحة من الحجم الصغير، ورقم التسجيل ٦٠٠.

وثالثها: عبارة عن النصف الثانى من "الريحانة" وهى نسخة تحتوى على الأسفار الرابع والخامس والسادس، وتقع جميعها فى ١٨٦لوحة.

ورابعها: نسخة ذات أوراق بالية وقديمة تشتمل على ٤٠ لوحة كبيرة قد كتب على الصفحة الأولى منها "السفر الثالث من ريحانة الكتاب"، وفى نهاية اللوحة الأخيرة عبارة "كمل السفر الخامس" ورقم تسجيلها ٦٤٠٠.

أما النسخة التى اعتمدتها فى التحقيق لكل من "الإشارة إلى أدب الوزارة" و"مقامة السياسية" فهى مخطوط الاسكوريال (الغزيرى ١٧٧٧) حيث تقع "الإشارة" فى ١٩ لوحة و"السياسة" فى ١٣ لوحة.

ولقد رأيت تعميها للفائدة، وشمولاً للبحث والدراسة أن أخط في هذا التحقيق النحو التالي:

الباب الأول: ويختص بترجمة للمؤلف.

الباب الثاني: عرض لمنصب "الوزارة" على مر التاريخ الإسلامي

الباب الثالث: التحقيق لمخطوط: "الإشارة إلى أدب الوزارة".

الباب الرابع : التحقيق لمخطوط : "مقامة السياسة".

وجدير بالذكر في النهاية أن أنوه بالفضل ـ كعادتي ـ لكل من تقدمني في هذا الميدان لا سيما في حقل التراث الاندلسي المغربي، آملا أن أكون بهذه الدراسة والتحقيق قد وضعت أمام الباحثين ما قد يحتاجون إليه في هذا المجال من تراثنا.

وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وهو ولي التوفيق

٢٢ من ذي القعدة ١٤٠٠ هـ ـ أول أكتوبر ١٩٨٠م.

المحقــق

دكتـــــور

محمد كمال شبانة.

المؤلف

لسان الدين ابن الخطيب

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي ابن أحمد السلماني نسبة إلى سلمان، بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية، وكانت أسرة ابن الخطيب إحدى هذه القبائل، ومن اليمن وفدت الأسرة إلى الأندلس، حيث أتخذت قرطبة مقراً لها.

ثم هاجرت الأسرة إلى طليطلة - كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه - عام ٢٠٢هـ، وهو العام الذى حدثت فيه ثورة أهل الربض بقرطبة، ضد أمير الأندلس الحكم بن هشام[1]، حيث حرض الفقهاء أهل الربض ضد الأمير، ولكن الحكم قضى على الثورة فى الموقعة المشهورة (موقعة الربض)، ومن هؤلاء أسرة ابن الخطيب التى قصدت طليطلة، وبقيت بها قرابة قرن ونصف، ولما أحست أسرة المترجم له بالخطر المحدق بالمدينة - حيث أصبحت هدفاً للأسبان فى أواسط القرن الخامس الهجرى (أوائل القرن الثالث عشر الميلادى) - بادرت بالنزوح عنها إلى مدينة (لوشه) حيث ولد ابن الخطيب.

ولد ابن الخطيب بمدينة لوشة فى ٢٥ رجب ٧١٣هـ/ ١٦ نوفمبر ١٣١٣م وتقع هذه المدينة على بعد ٥٥ كلم غرب غرناطة، وهى إحدى المدن الأندلسية الشهيرة أيام الحكم الإسلامى، وقد استولى عليها الأسبان خلال حروب الاسترداد، قبل سقوط غرناطة بقليل ٨٩١هـ/١٣٨٦م، وهى الآن مدينة أسبانية متوسطة المساحة يقع بعض عمرانها بأعلا ربوة صخرية والبعض الآخر من المبانى فى منخفض الوادى، وعلى مقربة منها بسيط فسيح من المزارع والحدائق، يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها، ويخترق لوشة نهر شنيل من الشمال، ويقدر عدد سكانها حاليا بمائة وخمسين ألف نسمة تقريباً، بينما كان

---

(١) هو أحد ملوك بنى أمية بالأندلس، تولى الحكم عام ١٨٠هـ وتوفى عام ٢٠٦هـ.

سكانها على عهد ابن الخطيب - يجاوز هذا العدد بكثير كما تقول الرواية الإسلامية على الخصوص.

هذا ولم يبق الآن من الآثار الإسلامية بهذه المدينة سوى أطلال القصبة أو القلعة، وبقايا بناء في باطنها، يرجح بعض المؤرخين المعاصرين[1] أنها كانت مسجدا، وهي عبارة عن ثلاثة عقود على صفين، ولكن لا تشتمل على أية نقوش أو كتابات، ويسمى هذا المكان بالجب ALGEB وتقع الكاتدرائية على مقربة من القصبة وفوق المسجد القديم حسبما يرى هؤلاء المؤرخون، حيث يستندون إلى التقليد العام للسياسة الأسبانية، من أنها كانت تقيم الكنيسة العظمى في كل بلد مفتوح على أنقاض المسجد الجامع، ومن المعروف أن المسجد الجامع كان يقع وسط المدينة دائمًا، ويدعم هذا الزعم أن الكاتدرائية تحتل اليوم وسط المدينة.

بيد أنه - حتى هذه اللحظة - لم يعثر عالم - آثار أو مؤرخ على أي اثر يتعلق بحياة الوزير ابن الخطيب في هذه المدينة (لوشة)، أو حتى موقع بيته، لطول العهد ومرور السنين الطوال.

تربى ابن الخطيب في أسرة عرفت بالأصالة والعلم والجاه، فقد كان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة، كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه، حيث ترجم لأبيه في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة) فروى لنا أنه ولد عام ٦٨٣هـ/ ١٢٧٢م، واستقر حينا في غرناطة، ثم عاد إلى لوشة مقر الأسرة، ثم رجع إلى غرناطة حيث ألتحق بخدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة (٧١٣هـ / ١٣١٤م).

ولما توفي هذا السلطان، وخلفه ابنه السلطان (أبو عبد الله محمد الرابع)، ألتحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضاً، ثم بأخيه السلطان أبي الحجاج

---

(١) هو المؤرخ العربي الأستاذ عبد الله عنان، في كتابه (الآثار الباقية في الأندلس).

يوسف (٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، حيث عاصر الكاتب الكبير والرئيس العظيم أبا الحسن علي ابن الجياب، والذى منح من جانبه لقب الوزارة، وأخيراً سقط عبد الله مع والده الأكبر - أخي لسان الدين - قتيلا في معركة طريف الشهيرة[1]، والتي تمخضت عن فوز الأسبان على المسلمين من الأندلس والمغرب، وسقوط كل من طريف والجزيرة الخضراء، وذلك في أكتوبر ١٣٤٠م - جمادى الاولى ٧٤١هـ.

نشأ ابن الخطيب في العاصمة غرناطة، وتلقى بها دراسته[2] وكانت غرناطة وقتئذ ميداناً احتشد فيه الأكابر من العلماء والأدباء، فدرس اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر، مثل أبي عبد الله الفخار الألبيرى شيخ النجاة في عصره، وأبي عبد الله بن مرزوق فقيه المغرب الكبير، والقاضي أبي البركات ابن الحاج البلفيقي، ودرس الأدب والشعر على الوزير أبي عبد الله بن الحكيم اللخمي، وعلى الرئيس أبي الحسن علي بن الجياب، وغير هؤلاء، كما درس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ يحيي بن هذيل، فلا نبالغ أذن إذا قلنا أن غرناطة في ذلك الوقت كانت أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والإسلامية في هذا القطر الغربي من العالم الإسلامي، وكان هذا من حسن حظ ابن الخطيب إلى حد بعيد.

لقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسي بحكم منصب والده. فمنذ شب عن الطوق ونفسه تطمح للوصول إلى مركز أبيه. فلما توفي الوالد دعي للخدمة مكانه وكان حينئذ في الثامنة والعشرين من عمره، حيث تولى أمانة السر لأستاذه الرئيس أبي الحسن ابن الجياب وزير السلطان أبي الحجاج يوسف الأول

---

(١) وتسمى بالأسبانية La Batalla del salado باسم النهر الذى وقعت على ضفافه، والذى يصب فى المحيط شمالى طريف.

(٢) ابن خلدون - كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢.

النصرى وكاتبه، ثم خلف أستاذه فى الوزارة[1] ونقلد الإنشاء للسلطان أبى الحجاج يوسف، وكان قد ملك زمام أرفع الأساليب شعراً ونثراً بفضل أستاذه الراحل وظهر أثر هذه التلمذة على رسائله السلطانية، والتى حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب والتى نعتها المؤرخ ابن خلدون "بالغرائب"، وقد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير فى كتابه (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)، كما أورد المقرى عدداً منها فى مؤلفه "نفح الطيب"[2].

هذا، وقد كسب ابن الخطيب ثقة مخدومه السلطان، حيث قربه من مجلسه، وخلع عليه الجم من النعم،كما أصبح أثيراً لديه، مودعاً أياه أمانة سره وكتابته، وذلك لروعة المكاتبات السلطانية التى دبجها له من جهة ومن جهة أخرى لنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب، وتحدث ابن الخطيب عن هذه المكانة فى كتابه الإحاطة بقوله: " فقلدنى السلطان سره ولما يستكمل الشباب، وبجتمع السن، معززة بالقيادة، ورسم الوزارة، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك، واستنابنى بدار ملكه، ورمى إلى بخاتمه وسيفه، وائتمننى على صوان، حضرته، وبيت ماله وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه"، فقد بعثه السلطان سفيراً إلى أبى الحسن المرينى ملك المغرب عام ٧٤٩هـ /١٣٤٨م.

ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلاً فى عيد الفطر ٧٥٥هـ/ ١٩ أكتوبر ١٣٥٤م، خلفه فى الملك ولده السلطان "محمد الغنى بالله". واستمر ابن الخطيب فى معاونة الوزير "أبى النعيم رضوان" على خدمة السلطان الجديد، كما تولى الوصاية على الأبناء القصر للسلطان المتوفى، ثم قام بسفارة إلى السلطان أبى عنان المرينى عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، ولقد نجح ابن الخطيب فى مهمته هذه نجاحاً عظيمًا، وفيها مدح أبا عنان بالقصيدة التى مطلعها:

---

(١) توفى ابن الجياب فى وباء الطاعون الجارف شوال ٧٤٩هـ - يناير ١٣٤٩م، على نحو ما قدمنا فى ترجمته.

(٢) المقرى — نفح الطيب ج٢ ص ٥٧٠، وما بعدها وج٤ فى عدة مواضع منه.

خلـــيفة الله ســـــاعد القـــــدر   عـلاك مـا لاح فـى الدجـى قمـر
ودافـــعـت عنك كـف قــــــدرته   مـا ليس يستطيع دفعـــه البشـــر
وجهـك فـى النائـبات بـدر دجـى   لـنا، وفـى المحــل كفـك المطـر
والـــناس طـــرا بـــأرض أنـــدلس   لـــولاك مـــا وطـــنوا ولا عمـــروا
وغايـــــة الأمـــــر أنـــــه وطـــــن   فـى غـير علـياك مـا لـه وطـر

فاســتجاب ملـك المغـرب للمطالـب الـتي حملـها ابـن الخطـيب لصـالح ملـك غرناطة، وفي مقدمتها العون الحربى لمقاومة اطماع ملك قشتالة.

ولقد ظفر ابـن الخطـيب بمكانـة ممـتازة لـدى الغنـى بـالله، اذ منحه ثقـة الملـك كأبـيه مـن قـبل، وخلـع علـيه لقـب (ذى الـوزارتين) لجمعـه بـين الكـتابة والـوزارة، وتحـدث ابـن الخطـيب عـن هـذه الفـترة مـن خدمـته فـى الإحاطـة، فيقول: "ولما هلك السـلطان (يعنـى أبـا الحجـاج) ضـاعف ولـده خطوتـى، وأعلـى مجلسـى، وقصـر المشـورة علـى نصحى، إلى أن كانـت علـيه الكائـنة، فاقـتدى فـى أخـوه المـتغلب علـى الأمـر، فسـجل الاختصـاص، وعقـد القـلادة، ثـم حملـه أهـل الشـحناء مـن اعـوان ثورته على القبض على، فكان ذلك" [1].

أمـا الكائـنة التـى وردت علـى لسـانه فيعنـى بهـا الـثورة التـى انـدلعت فـى غـرناطة عـام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م، وانـتهت بـأن فقـد السـلطان الغنـى بـالله ملكـه، واستولى أخوه الأمير إسماعيل علـى العرش، كما تمخضت هـذه الـثورة عـن مقـتل الوزيـر ابـى النعـيم رضـوان، ثـم فـرار الغنـى بـالله إلى وادى آش، وعلـيه فأصـبح ابـن الخطـيب لا يملـك مـن الأمـر شـيئًا، غـير أنـه حـاول لآن يسـتميل السـلطان الجديـد، فقـبله فـى الـوزارة مؤقـتا، ثـم تشـكك بعـد قـيل فـى نـواياه بتحـريض منافسـيه وحسـاده فقـبض علـيه، وصـادر أملاكـه، وبـذلك فقـد ابـن الخطـيب جاهـه ونفـوذه، بل ومتاعه بين عشية وضحاها.

---

(١) ابن الخطيب — الإحاطة — مخطوطة الاسكوريال، لوحة ٣٧.

هذه النكبة لم تطل بابن الخطيب، فقد بعث ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمسانى، إلى ملك غرناطة الجديد يطلب إليه أن يسمح للملك المخلوع الغنى بالله ووزيره ابن الخطيب بأن يغادرا الأندلس إلى المغرب ضيفين عزيزين، فرضخ سلطان غرناطة الجديد لهذا الطلب سياسة منه، وإبقاء على أواصر الوداد مع بنى مرين، واحتفاظاً بهم سنداً فى مستقبل الدولة الإسلامية بالأندلس، وبهذا أطلق سراح ابن الخطيب ومعهما نفر كبير من الحاشية، فوصل الركب فاس فى ٦ محرم ٧٦١هـ / ٨ ديسمبر ١٣٥٨م، حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالاً حاراً، واحتفل بقدومهم احتفالاً عظيمًا، وألقى ابن الخطيب فى هذه المناسبة بين يدى المضيف قصيدته الشهيرة، يستنصره ليعين سلطانه على أمره، وذلك حيث يقول:

قصدناك يا خير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد، فانصرم الردى ولذنا بذاك العزم، فانهزم الشر
ولما اتينا البحر يرهب موجه ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

ومنها:

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى وأنت الذى ترجى إذا اخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا بيالمرين جاءه العز والنصر
وخذ يا أمام ألحق ثأره فمن ضمن ما تأتى به العز والأجر(١)

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل - بصفته من كبار رجال البلاط المرينى - فيصفه لنا ويقول: " إن ابن الخطيب استولى على سامعيه فأبكاهم تأثراً ".

(١) المقرى — نفح الطيب ج٣ من ص ٤٦ — ٤٨، والقصيدة ثمانون بيتاً، كما وردت فى أزهار الرياض ج ١ ص ١٦٧ ـ ٢٠٠، وفى اللمحة البدرية من ص ١١٠ ـ ١١٣ ونقلها ابن خلدون فى كتابه العبر ج ٧ من ص ٣٠٧ — ٣٠٩.

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب فى رعاية السلطان أبى سالم الذى أقطعه الأراضى، ورتب له الرواتب، حيث استقر فى سلا حوالى ثلاثة أعوام منفيا تقريبا (٧٦٠هـ - ٧٦٣هـ)، اقتنى خلالها الضياع والأموال ولكن لم ينس فى الوقت نفسه نزعته الثقافية والتأليفية، فجاس خلال مدن المغرب دارساً باحثاً، ملتقياً بالعلماء فى تجواله، وفى نهاية المطاف عاد إلى سلا، حيث رابط بضاحية (شالة)، قرب أضرحة ملوك بنى مرين.

هذا، وقد اصيب ابن الخطيب أبان هذه الفترة فى زوجته أم أولاده، وبالرغم من كل ما توالى عليه من نكبات متوالية فإنه لم يقعد عن التأليف، ولم يخلد إلى الراحة والسكينة، ويكفى دليلاً على ذلك تلك المؤلفات التى حررها وقتئذ وأهمها:

١ - معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار.

٢ - نفاضة الجراب، وعلالة الاغتراب.

٣ - اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية.

٤ - الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة[1].

٥ - رقم الحلل، فى نظم الدول.

٦ - كناسة الدكان، بعد انتقال السكان.

٧ - رسائل فى فنون مختلفة، معظمها نظمه شعراً.

---

(١) هــذا الكتاب يتناول فيه ابن الخطيب تاريخ الدولة الإسلامية، وقد أهداه للسلطان أبى سالم ملك المغرب. فكافأه عليه بمضاعفة رواتبه، كما كتب إلى ملك غرناطة المغتصب فى شأن الإفراج عن ممتلكات ابن الخطيب المصادرة، وتعد هذه لفتة ملكية سامية فى تكريم العلم والعلماء.

أما السلطان المنفى (الغنى بالله ابن الأحمر) فقد بقى من جانبه فى فاس، يترقب عودته لعرشه، معتمداً فى ذلك على مساعدة ملك قشتاله (بيدرو الثانى)، استناداً إلى اتفاق سابق بينهما، بيد أن هذا الاتفاق لم تنفذه قشتالة، إذا فضل بيدور الثانى التسليم بالأمر الواقع، ومسالمة ملك غرناطة الجديد (إسماعيل بن الأحمر).

وفى هذه الأثناء تم انقلاب فى فاس، ترتب عليه مصرع السلطان أبى سالم، فى ذى القعدة ٧٦٢هـ / ١١ أكتوبر ١٣٦١م، وتقلد السلطة صاحب الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله، الذى أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره، ووقف إلى جانبه فى استرجاع عرشه، حتى سنحت الفرصة وواتت الظروف، وذلك باندلاع ثورة جديدة فى غرناطة، صرع فيها السلطان إسماعيل بن الأحمر على يد الرئيس أبى سعيد، الذى فر إلى قشتالة عقب عودة الغنى بالله إلى الأندلس واستيلائه على مالقة، ثم دخوله غرناطة وتربعه على العرش من جديد عام ٧٦٣هـ - ١٣٦١م - ١٣٦٢م.

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد وزيره المنفى ابن الخطيب ليقدم إلى دار ملكه، برسالة مؤرخة ١٤ جمادى الأخرة ٧٦٣ هـ - ١٣٦١م، وذلك ليتقلد منصبه السابق، فاستجاب ابن الخطيب وجاز البحر، صحبة أسرة السلطان وأسرته، حيث وصل العاصمة، وهناك وجد من يزاحمه منصبه وينافسه السلطة، وهو شيخ العزاة عثمان بن أبى يحيى، صاحب اليد على السلطان فى استرجاع العرش، فنشب خلاف بين الرجلين، وحقد كلاهما على الأخر، ولكن ابن الخطيب كان أشد مراساً بأساليب الكيد والدس، فتغلب على خصمه، إذ زين للسلطان خطورة نفوذ (عثمان) هذا، وبدأ يخيفه من غدره، وغدر أشياعه، فاستجاب ابن الأحمر لنصح ابن الخطيب وقضى على عثمان وآله فى رمضان ٧٦٤هـ - ١٤ يونيو - ١٣ يوليو ١٣٦٣م. وبذلك استرد ابن الخطيب كامل سلطته دون مناوئ أو منافس، ولكن إلى حين.

هذا، ويبدو أن تحولاً طرأ على سياسة ابن الخطيب العامة منذ الآن، إذ يحدثنا بنفسه عن هذا المسلك الجديد فى عمله بقوله:

"فاستعنت الله تعالى، وعاملت وجهه فيه، من غير تلبس بجرايه، ولا تشبث بولاية، مقتصراً على الكفاية حذرا من النقد، خامل المركب، معتمداً على المنسأة، مستمتعاً بخلق النعل، راضياً بغير النبيه من الثوب، مشفقاً من موافقة الغرور، هاجر الزخرف، صادعاً بالحق فى أسواق الباطل، كافا عن السخال براثن السباع، ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية ومدرسة للتربية، بكر الحسنات بهذه الخطة بل بالجزيرة فيما سلف من المدة، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان وعفاف الحاشية والأمن، وردم الثغور، وتثمير الجباية، وانصاف الحماة والمقاتلة، ومقارعة الملوك المجاورة، فى إيثار المصلحة الدينية، والصدع فوق المنابر ضماناً من السلطان بترياق سم الثورة، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة وما الله تعالى المجازى عليه، والمعوض من سهر خلعته على اعطافه، وخطر اقتحمته من أجله" (١).

هذا ما كان يعتمل فى نفس ابن الخطيب، من منهج عزم على سلوكه وتطبيقه بينه وبين نفسه، من رضا بشظف العيش على حد قوله، والتفات بكليته إلى تدعيم أركان الدولة، وتوطيد عرش السلطان، متخذاً لهذا من الوسائل ما هو صالح ومشروع، متحملاً فى سبيل ذلك أمانة الوزارة، وما تفرضه من جهد جهيد، حتى لاحقه الأرق واقض مضجعه، فأبدى رغبته فى إعفائه من منصبه لبعض خاصته، ورغب بينه وبين نفسه فى مغادرة الأندلس، بعد أن شعر بما يحاك حوله من دسائس ومكائد، وبخاصة حين رأى سلطانه قد بدأ يتأثر بسعايه الخصوم، وقد تزعم هذه الحملة الجديدة ضد ابن الخطيب رجلان قويا

---

(١) المقرى ــ نفح الطيب ج ٣ ص ٤٢.

التأثير فى السلطان بحكم وضعيتهما فى الخدمة السلطانية، ولما لهما من مكانة سياسية فى الدولة، هذان الرجلان هما:

١ ـ الوزير الشاعر محمد بن يوسف، المعروف ب (ابن زمرك) تلميذ ابن الخطيب ومعاونه فى الوزارة.

٢ ـ قاضى الجماعة بغرناطة أبو الحسن على بن عبد الله، ولى نعمه ابن الخطيب.

ويتلخص اتهام الرجلين لابن الخطيب فى أن الأول يتهمه بانتقاص السلطة من السلطان، وطغيان النفوذ، والاستبداد بالأمر، بينما اتهمه الثانى بالإلحاد والخروج على أحكام الدين، وهذه هى الطامة الكبرى، فقد بنى عليه فيما بعد ـ كما سنرى ـ صك الاتهام، وحيث حكم على الرجل بالموت.

حينئذ شعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان بين هذين الرجلين الداهيتين، فدبر أمره على مغادرة الأندلس نهائيا دون أن يشعر السلطان بذلك، وفعلا طلب منه أن يأذن له فى تفقد بعض الثغور والموانئ الأندلسية الشرقية، فأجابه السلطان، بينما كان من جانبه قد أعد العدة للإبحار إلى المغرب، حيث يحل على السلطان أبى عنان بن أبى الحسن المرينى لاجئًا سياسياً. وقد تم له ذلك بوصوله إلى جبل طارق، وكان الجبل يومئذ ضمن أملاك المرينيين، ونجحت الخطة، إذ استقبله قائد ميناء الجبل بحفاوة، وسهل له مهمته بأمر من سلطان المغرب، وأجازه إلى سبتة هو ومن معه من ولده، وقبل أن يودع الوزير هذه البقاع بعث برسالة مؤثرة إلى السلطان الغنى بالله، يعلل فيها مسلكه الأخير هذا، وبرر له تصرفه الاضطرارى، ثم يستسمحه فى الأخير طالباً غفرانه، مؤملا العون لأسرته التى خلفها وراءه فى غرناطة.

وصل ابن الخطيب إلى سبتة، ومنها ألتحق بتلمسان مقر السلطان عبد العزيز، الذى احتفى به وأكرمه، ثم بعث بسفرائه إلى غرناطة. يلتمس من

سلطانها أن يجيز أسرة ابن الخطيب، فأجابه ابن الأحمر إلى طلبه، وكان ذلك عام ٧٦٣هـ - ١٣٦١م.

كان من المتوقع أن يهدأ ابن الخطيب بهذا المقام بالمغرب، فالسلطان قد احله مكانته اللائقة به، وابدله مما فقد الشيء الكثير، ولكن - للأسف - اتخذ منافسوه من هربه - على هذه الصورة - مادة دسمة للكيد، وأكدوا للسلطان أدانته، وعدم وفائه لولى نعمته، وزاد الاتهام تأكيداً أن ابن الخطيب كان حريصاً على أن يحمل معه أمواله وذخائره إلى المغرب، وفى هذا يقول له القاضى النباهى غريمه ضمن الرسالة التى بعث بها إليه "فهمزتم ولمزتم، وجمعتم من المال ما جمعتم.. ثم هربتم بأثقالكم" [1] .

هذا، ومن جانب آخر، لم يعدم الخصوم وسيلة لا يغار صدر السلطان تجاه ابن الخطيب، أيا كانت خطورة النتائج، فأولوا بعض كتاباته فى مؤلفاته وفق أغراضهم، وأسندوا إليه القول بالحلول، والطعن فى الرسول واعتبروا تاريخه وتراجمه من قبيل الاغتياب، وخاصة منها ما تناول فيه المؤلف المأخذ على المترجم لهم، وقد نشر هذه الدعاية الوزير عبد الله بن زمرك، وإعانه عليها القاضى النباهى، الذى أفتى بوجوب حرق كتب ابن الخطيب التى تناول فيها "العقائد والأخلاق"، وقد أحرقت بالفعل فى غرناطة فى منتصف عام ٧٦٣هـ / ١٣٦٣م بمحضر من الفقهاء والمدرسين من العلماء وأماثيل الفقهاء، لما تضمنته الكتب المذكورة من المقالات التي أوجبت ذلك عندهم، وحققته لديهم[2]، وبذلك ضاعت مجموعة من نفائس مؤلفات ابن الخطيب، ضحية عمى البصيرة وشهوة الانتقام.

---

(١) المقرى - نفح الطيب ج ٧ ص ٥٦.

(٢) أبو الحسن النباهى - تاريخ قضاة الاندلس ص ٢٠٢ طبعة القاهرة تحقيق ليفى بروفنسال.

كان القاضى النباهى فيما سبق من أنصار الوزير ابن الخطيب، بل أن تعيينه قاضياً للجماعة واستصدار ظهير هذا المنصب قد تم على يد ابن الخطيب نفسه، كما نجد فى كتاب الإحاطة ترجمة للنباهى تنبئ عن تقدير ابن الخطيب لهذا الرجل، إذ ينعته بأنه "قريع بيت مجادة جلاله، وبقيه تعين واصالة، عف النشأة، طاهر الثوب، مؤثر للوقار والحشمة، بعيد الغور، مرهف الجوانب ناظم، ناثر، نثره يشف عن نظمه، ذاكراً للكثير، بعيد المدى فى باب النزاهة، ماضيا غير هيوب.. الخ" [1] ولكن ذلك "النباهى" تنكر تماماً لابن الخطيب، ولم يحفظ له هذا الجميل، فقد أزر الوزير " ابن زمرك" ضده وسعى سعيا حثيثا فى سبيل القضاء عليه، وتتجلى هذه الروح الشريرة، وما يمليه الحقد الشخصى، والضغائن الدفينة، فى تلك الرسالة التى بعث بها القاضى النباهى إلى ابن الخطيب بالمغرب، وفيها يأخذ عليه الانصراف إلى اقتناء الضياع والديار، كما أنه نسب إليه فى مؤلفاته بعض محدثات فى الدين، مما يمس الشريعة الإسلامية، وأنه تناول فى بعض هذه المؤلفات الأموات من الناس، وذلك بالطعن أو العيب فيهم، الأمر الذى يستنكره الدين.. إلى أخر ما جاء فى تلك الرسالة من مثل هذه المثالب. زيادة على تفسير النباهى لمواقف ابن الخطيب - سواء منها الخاص أو العام - بأنها لأغراض شخصية، وأهواء معينة، كمغادرته الأندلس مؤخراً رأى فيه النباهى غدراً بالسلطان ولى نعمته، كما كذبه فى ادعائه الانقطاع لعبادة فى المغرب، وأنه لو أرادها حقيقة لقصد الديار المقدسة، أو ابقى على نفسه بغرناطة بجوار الكفاح والجهاد لنصرة المملكة الإسلامية، التى يتهددها خطر الأسبان فى كل حين.

---

(١) المقرى — نفح الطيب ج ٣ ص ٧٨٥ — ٧٨٦.

كذلك عاب القاضي النباهي - في هذه الرسالة - على ابن الخطيب أنه أقدم نفسه – بحكم منصبه الوزارى فى اختصاصه القضائى، وعدد له بعض الوقائع التى علل بها هذا التدخل فيما ليس من اختصاصه، بل ومنها ما يمس استقلال القضاء، وما ينبغى أن يتوفر للقائم به من حرمة وقداسة.

وفى الأخير ينهى النباهى رسالته بالنيل من أسرة ابن الخطيب، وأنهم حديثو عهد بالنعمة، وأن ثروتهم هذه لم تأت إلا عن طريق المنصب والسلطة.

وقد كان لهذه الرسالة[1] أثر فيما بعد، حيث كانت صك الاتهام كما ذكرنا، وادين ابن الخطيب على أساس ما ورد فيها عندما حلت نكبته، ودنت ساعة نحسه.

إن تاريخ هذه الرسالة يرجع إلى أواخر جمادى الأولى ٦٨٣هـ/١٠ نوفمبر ١٣٧١م، وقد تسلمها ابن الخطيب بتلمسان، وأجاب على ما جاء بها مفصلا فى كتابه "الكتبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة"[2]، وشدد النكر على القاضى النباهى، كما عاود النيل منه فى كتابه "أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام" ففيه يصفه بأنه "الجعسوس أى القزم الدميم" وزاد ابن الخطيب فوضع رسالة خاصة للنيل من خصمه اللدود، وسماها "خلع الرسن فى وصف القاضى أبى الحسن".

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) راجع : ترجمة ابن الخطيب للقاضى النباهى فى كتابه هذا، ص ١٤٦ – ٢٠٢ تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت ١٩٦٤م.

مضى كل من النباهي والوزير ابن زمرك في عزمهما على سحق غريمهما ابن الخطيب. فبعد إحراق كتبه العقائدية، عمد النباهي إلى استصدار حكم الشرع في جريمة الإلحاد وهو الإعدام وحصل من السلطان محمد الغني بالله على إقرار بهذا، وبعث سفراءه إلى السلطان عبد العزيز وبأيديهم هذا الحكم، فقابل السلطان رسل غرناطة بالاستنكار، وخاطبهم قائلا. "هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم وانتم عالمون بما كان عليه!!!" وبالغ في إكرام ابن الخطيب، وأضفى عليه مزيداً من عنايته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن الخطيب قد لاحظ وقتئذ قوة المغرب في عهد صديقه السلطان عبد العزيز ملك المغرب، ومبلغ العداء بين فاس وغرناطة وقد بلغ أوجه، فحرص السلطان المريني على امتلاك غرناطة، وكان يرمي من وراء ذلك إلى سحق أعدائه هناك وتأمين مقامه بالمغرب، وما يتبع ذلك من حماية مصالحه.

ويظهر أن هذه السياسة قد لاقت قبولاً عند السلطان عبد العزيز، فصمم على تنفيذها، وفي ذلك يقول ابن خلدون.

"ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر، فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه، وتواعد لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب[1] فتخوف ابن الأحمر لذلك كثيرًا، وأسرع في إيفاد رسله بالهدايا والتحف الثمينة إلى بلاط فاس، أملا في نيل رضا السلطان عبد العزيز واتقاء شره. ثم تفاجيء الظروف فيموت السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل، ويجلس على عرش المغرب

(١) ابن خلدون – كتاب العبر ج ٧ ، ص ٣٣٨، ص ٣٤١.

ابنه الطفل (أبو زيان محمد السعيد) في الرابعة من عمره، خلال عام ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م، وقبض على زمام السلطة الفعلية وزيره (أبو بكر بن غازى)، فتغيرت الأوضاع السياسية بالمغرب تماماً، واضطر ابن الخطيب حينئذ أن يتزلف إلى الملك الطفل ووزيره. فألف كتابه المعروف "أعمال الاعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام"، وفيه برر هذا الوضع الجديد شرعا وعرفا وتاريخاً، وأورده لذلك الأشياء والنظائر.

وفي هذه الأثناء قام السلطان ابن الأحمر بمحاولة أخرى للإيقاع بأن الخطيب، ذلك أن أوعز إلى الوزير ابن غازى أن يرسله إليه، فامتنع ابن غازى، وتوترت العلاقات مرة أخرى بين غرناطة وفاس، الأمر الذى حمل ابن الأحمر على أن يوغر صدور بعض الأمراء المرينيين ضد النظام القائم فى فاس، وبذل فى سبيل هذا مساعدات ضخمة كما اقنع من اتصل بهم من حكام الأقاليم ـ وبخاصة حكام سبتة محمد بن عثمان – بأن من الأفضل للمغرب أن يكون الملك رجلاً راشداً لا طفلاً صغيراً لا يدرك شيئاً، واتفق معه على تنصيب الأمير المرينى أبى العباس أحمد بن سالم ملكاً على المغرب، وأنه أى محمد بن عثمان ـ سيكون الوزير القادم، وإعطاء المزيد من المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق، على أن يحقق هذا الوزير لابن الأحمر ثلاثة شروط أثر نجاح الخطة، وهى:

١ ـ تسليم ابن الخطيب.

٢ ـ تسليم الأمراء المرينيين المناهضين لأبن الأحمر.

٣ ـ تسليم جبل طارق.

وقعت بعض الحوادث بالمغرب، وتمخضت عنها ثورة قاضية، أدت إلى حدوث الانقلاب المنشود لابن الأحمر ونودى حينئذ بالأمير أحمد بن السلطان أبى سالم واليا على المغرب فى ١٢ يونيو ١٣٧٤م، وأسرع السلطان الجديد إلى القبض على ابن الخطيب وسجنه، وبذلك تهيأت الفرصة لوضع نهاية وزيرنا المنكود، فقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس ابن داود من الد الخصوم لابن الخطيب، ومن جهة أخرى فقد أرسل سلطان غرناطة فورا سفيره عبد الله بن زمرك، ليشهد آخر فصل لهذه الرواية، وليدق أخر مسمار فى نعش ابن الخطيب، وكان أن عقد السلطان أحمد مجلساً بفاس من مستشاريه وكبار رجال الدولة، ونوقش ابن الخطيب أمام هذا المجلس حول كافة الإدعاءات المقامة ضده، وبالأخص دعوى الإلحاد، تلك الدعوى التى صاغها القاضي النباهى من قبل، وكان مجلساً صورياً بطبيعة الحال، فإن نتيجة المحاكمة كانت مقررة ومتفقاً عليها فى كل من غرناطة وفاس.

لقد أوذى ابن الخطيب أمام شهود هذه المؤامرة، وأفتى الفقهاء المتعصبون بإعدامه، شرعاً، فأعيد إلى سجنه، حيث دبر الوزير سليمان بن داود أمر قتله فى السجن، وفعلاً بعث إليه بعض الأشرار الذين قتلوه خنقا، وقد تم ذلك فى أواخر عام ٧٧٦هـ - مايو أو يونيو ١٣٧٥م. وفى الصباح سحبت جثته إلى الفضاء حيث تم حرقها، ودفن بضاحية فاس [1].

هذا، ويروى المقرى أنه تمكن من معرفة قبر ابن الخطيب، وذلك خلال إقامته مبكراً بفاس، أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (القرن السابع عشر الميلادى)، فزاره حيث يرقد، وفى هذا يقول:

---

(١) ابن خلدون - كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ - ص ٣٤٢.

" وقد زرته مراراً - رحمه الله تعالى - بفاس المحروسة، فوق باب المدينة الذى يقال له باب الشريعة، وهو يسمى الآن "باب المحروق"، وشاهدت موضع دفنه غير مستوٍ مع الأرض، بل ينزل إليه بانحدار كثير" [1].

رحم الله ابن الخطيب كفاء ما زود التاريخ من ذخائر، وأهدى العلوم والمعارف من نفائس.

(١) ابن خلدون — كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ — ص ٣٤٢.

الـــــــوزارة

في اللغـــة:

تذكر كتب اللغة والقواميس أن لفظة " الوزارة " فعلها "وزر" والمضارع منه "يزر" كوعد يعد والمصدر "وزرا"، ووزرا، ووزر الرجل الشيء، بمعنى حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة، ووزر للملك أى صار له وزيرا. وآزره مؤازرة، عاونه على الأمر وقواه.

والوزر بكسر وسكون الزاى هو الأثر، والذنب، والجمع منه أوزار، ويطلق على الحمل الثقيل، والموزور هو المرتكب للأثم، والوزارة، رتبة الوزير وولايته، والوزير يجمع على وزراء، وهو من بعثه الملك أو صاحب السلطة العليا في البلاد ليتولى شئون الدولة، فيستعين برأيه وتدبيره.

أما الوزر بفتح الواو والزاى – وهو مصدر أيضا لوزر – بمعنى الملجأ، وأوزر الشيء بمعنى خبأه، كما يطلق الوزر أيضا على الجبل وكل ما يحتمى به من مانع أو ستار[1] .

في القرآن الكريم :

يقول جل شأنه. ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَـٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝ ﴾ [2] ويقـــول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [3].

قال الراغب في كتابه "مفردات القرآن. الوزير، الملجأ الذى يلتجأ إليه من الجبل. وفي الآية ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ [4] ، أى لا ملجأ..ن والوزر . الثقل ـ تشبيها بوزر الجبل. ويعبر بذلك عن الأثم كما يعبر عنه بالثقل، وفي الآية ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [5]على معنى آية العنكبوت ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [6].

---

(١) انظر لسان العرب، والقاموس المحيط، مادة "وزر".
(٢) سورة طه الآية : ٢٩.
(٣) سورة الفرقان الآية : ١١٠.
(٤) سورة القيامة الآية: ١١.
(٥) سورة العنكبوت الآية : ٢٥.
(٦) سورة النحل الآية: ٢٥.

- والوزير. المتحمل ثقل اميره ومشغله.

- والوزارة . على بناء الصناعة.

وأوزار الحرب، وأحدها وزر. وآلتها من السلاح.

- والموازرة، المعاونة، وآزرت فلانا موازرة. أعنته.

- والآية من سورة فاطر ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [1]: أى لا يحمل وزره من حيث يبرأ المحمول عنه. بل هو كما فى الحديث الصحيح "ومن سن سنة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها" الخ، بحيث يكون مرتكب الوزر مسئولا عما فعل أيضاً.

وفى الآية من سورة الشرح ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ [2] أى أعفيناك من فعل ما كان يعمله أهل الجاهلية، فلم تحاكهم.

هذا ما ذكره الراغب الأصفهانى من كتابه فى مادة "وزر".

فى الحديث النبوى:

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها – فى حديث يوم السقيفة:

".. ثم تكلم أبو بكر، فقال فى كلامه للأنصار. نحن الأمراء، وأنتم الوزراء"، فقال حباب بن المنذر "لا، والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير"، فقال أبو بكر. "ولكنا الأمراء، وأنتم الوزراء..الخ" [3]ورواه الإمام أحمد فى مسنده "عن حميد ابن عبد الرحمن قال: سعد بن عبادة لأبى بكر: "نحن الوزراء وأنت الأمراء فقال أبو بكر... الخ[4].

---

(١) سورة فاطر الآية: ١٨.

(٢) سورة الانشراح الآية: ٢ – ٣

(٣) البخارى : ح ٨/٥.

(٤) المسند : ح ١/٥.

ـ ولا منافه بينهما، لجواز أن كلا منهما قال ذلك لأبى بكر.

وروى الإمام أحمد فى مسنده حديثا عن عبد الله بن مسعود، قال:

" إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه. فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء"[1].

وعن الإمام أحمد أيضاً، عن أبى هريرة، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "ويل للوزراء، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا، يتذوبون بين السماء والأرض وأنهم بلوا عملا" [2].

كما روى أيضا فى "مسنده" قال على بن أبى طالب، كرم الله وجهه:

"سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ليس من نبى كان قبلى ألا وقد أعطى سبعة نقباء وزراء نجباء، وأنى أعطيت أربعة عشر وزيرا نقيبا نجيبا. سبعة من قريش وسبعة من المهاجرين" [3].

وروى الإمام أحمد كذلك فى مسنده، قال على بن أبى طالب:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه لم يكن قبلى نبى إلا قد أعطى سبعة رفقاء نجباء وزراء، وأنى أعطيت أربعة عشرة، وهم: حمزة وجعفر، وعلى، وحسن، وحسين، وأبو بكر، وعمر، والمقداد، وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر، وحذيفة، وسلمان، وعمار، وبلال" [4].

---

(١) السابق: ح ٣٧٩/١.

(٢) السابق : ح ٨٨/١.

(٣) السابق : ح ٥٢١/١.

(٤) السابق : ح ١٤٨/١.

وروى أبو داود من كتابه في باب "الإمارة"، وقال:

"باب في اتخاذ الوزير" وبسنده عن عائشة قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق فأن نسي ذكره، وأن ذكر أعانه. وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، أن نسي لم يذكره، وان ذكر لم يعنه"(١).

ثم ذكر أبو داود رواية ثانية عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق.

ونعود مرة أخرى إلى الإمام أحمد، لنجد أنه روى عن السيدة عائشة قالت:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: من ولاه الله من أمر المسلمين شيئاً - فأراد به خيراً - جعل له وزير صدق، فأن نسي ذكر، وأن ذكر اعانه(٢).

وروى الترمذي بسنده إلى أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من نبي ألا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراى من أهل السماء فجبريل وميكائيل. وأما وزيراى من أهل الأرض فأبو بكر وعمر".

قال الترمذي.. حديث حسن غريب(٣).

في بعض المؤرخات:

"يقول ابن خلدون في المقدمة".

(وأعلم أن السلطان في نفسه ضعيف، يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه، فما ظنك

(١) السابق: ج ١٣١/٣.

(٢) المسند: ح ٧٠/٦.

(٣) السابق: ح ٢٧٨/٥.

بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعباده؟ وقد طلب موسى من الله سبحانه وتعالى ان يمده برجل من أهله، يستعين به على القيام بأعباء الحكم، فقال: "واجعل لى وزيراً من أهلى، هارون أخى، أشدد به أزرى. وأشركه فى أمرى"[1] .

ويذكر فى هذا الصدد قول ابن طباطبا:

"الوزير وسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلا الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة، والأمانة وصدق رأس المال. قيل: "إذا خان السفير بطل التدبير". وقيل: ليس لمكذوب رأى، والكفاءة والشهامة من مهماته، والفطنة والتيقظ والدماء والحزم من ضرورياته. ولا يستغنى أن يكون مفضالاً مطعماً، ليستميل بذلك الأعناق، وليكون مشكوراً بكل لسان، والرفق والأناة، والتثبيت فى الأمور، والحلم والوقار والتمكين ونفاذ القول لما لا بد منه" [2].

قال الماردى فى شأن الوزير:

"... ولان ما وكل إلى الإمام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جمعية إلا باستنابة... ونيابة الوزير المشارك له فى التدابير أصح فى تنفيذ الأمور من تفرده بها، ليستظهر به على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل، وأمنح من الخلل"[3] .

وهكذا نرى أن لفظة الوزارة ومشتقاتها قد وردت بمعنى واحد فى اللغة والقرآن، والحديث، والمؤرخات، ودارت حول مدلولها العام والخاص، اشتقاقا من "الوزر" وهو الثقل و العبء، فالوزير يتكفل بأعباء الحكم وأثقاله. أو اشتقاقا من "الوزر" وهو الملجأ والمعتصم، لأن الملك يلجأ إلى رأى الوزير. كما يمكن أن

---

(١) المقدمة : ص ١٠٤.

(٢) الفخرى فى: الأداب السلطانية: ص ١٣٦ — ١٣٧.

(٣) الماوردى فى: الأحكام السلطانية — ص ٢١.

نكون اللفظة مأخوذة من "الاز " بمعنى "الظهر"، لأن الملك يقوى بوزيره وقوة البدن بالظهر[1] . فتلك ثلاثة أوجه في مدلول كلمه الوزارة، وأن كان ابن خلدون يرى ان اسلمها يدل على مطلق الأعانة فإن الوزارة أما من "المؤازرة" وهى المعاونة، أو من "الوزر وهو الثقل، وهو راجع إلى المعاونة المطلقة[2] .

بيد أن بعض المستشرقين يرجعون لفظة "الوزارة" إلى اللغة البهلوية وهى الفارسية ا " يمة، منظرين بين كلمة "فشير" البهلوية وكلمة "وزير" والأولى تعنى فى لغتها: القاضى أو الحكم. ولكننا ندرك مدى الفرق بين الوزارة والقضاء، الأمر الذى لا يجعلنا نجارى المستشرقين فى قولهم باشتقاق الكلمة من هذا اللفظ من الفارسية القديمة، بالإضافة إلى ورود لفظة "الوزير" فى القرآن الكريم - كما ذكرنا - بمعنى "النصير" وكل ما فى الأمر أن اللفظ بمعناه السياسى مستحدث فى الإسلام، وقد كان متداولا عند بنى إسرائيل قبل أهل فارس، كما كانت الوزارة معروفة بمعناها الواسع فى السياسة عندهم.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٧ "فصل: ٣٤ – وفى مراتب الملك".

(٢) المصدر السابق : ١٩٨/٣٤.

الـــــــوزارة

عبر العصـــور الإســـلامية

فى عهد النبوة والراشدين:

لم تكن الوزارة فى بدء الدولة الإسلامية متعارفة بالمعنى السياسى وإن كانت مستعملة اللفظ بمعناها الوظيفى على وجه ما، حيث يشير ابن خلدون إلى ذلك فيقول:

" وما زال الأمر فى الدول قبل الإسلام هكذا، حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة، فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك، إلا ما هو طبيعى من المعاونة بالرأى، والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله، إذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيراً. ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام، وكذا عمر مع أبى بكر، وعلى وعثمان مع عمر" [1].

فمن هذا النص نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستشير صحابته، ويطلب رأيهم فى شتى المسائل والمشكلات، وخاصة الصديق أبا بكر، حتى أطلق عليه الكثيرون يومئذ "وزير النبى" ولا شك أن هؤلاء يعرفون مدلول هذا اللفظ عند آل ساسان بحكم اختلاطهم بهم أو سماعهم عنها عندهم. ولما تولى أبو بكر الخلافة كان عمر بمثابة الوزير لديه، فقد كان يتولى الشؤون القضائية بأمر الخليفة، ويقسم الزكاة على المستحقين. والشأن كذلك فى عهد عمر بالنسبة لعثمان وعلى، حيث كان يستشيرهما، ويعهد إليهما ببعض شئون الدولة، ولا سيما عليا الذى كان يحرر الرسائل ويقضى بين الناس، ويفتدى أسرى المسلمين.

---

(١) المصدر السابق: ١٩٨/٣٤.

وقد روى بعض المؤرخين أن عمر بن الخطاب أوفد عبد الله بن مسعود إلى الكوفة ليعلم الناس هناك أمور دينهم وقال: " أنى بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميرًا، وعبد الله بن مسعود وزيرًا".

وعلى هذا فإن الصحابة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا يقومون بالأعمال التى يضطلع بها الوزير عادة، وكان الخليفة يعتمد فى إدارة شؤون الدولة على استشارة ذوى المعرفة والرأى من كبار الصحابة وأعيان القوم وشيوخ القبائل، وكثيراً ما عقد هؤلاء مجالسهم الاستشارية فى مسجد المدينة، يتوسطهم فى كثير من الأحيان الذين رافقوا النبى صلى الله عليه وسلم كثيراً فى حله وترحاله، ولا أدل على هذا من الأحاديث النبوية التى أوردناها للإشارة إلى ما تعنى كلمة الوزارة ولفظ الوزير فى "الحديث النبوى".

فى عهد الأمويين والعباسيين:

وجاءت الدولة الأموية لتقوم على نظرية الملكية الوراثية، وكان لا بد لخلفائها مع هذا من أن يستعينوا ببعض ذوى الرأى والثقافة للقيام ببعض المهام، أو يستشيرونهم فيما يعن لهم من أمور الملكة، فقربوهم إلى بلاطهم وأفسحوا لهم فى مجالسهم، فكان هؤلاء يقومون بما يناط بهم من أعمال الوزراء، دون أن يخلع عليهم هذا اللقب، ومع هذا فقد كان زياد بن أبيه[1] يلقب بلقب الوزير، فى عصر معاوية بن أبى سفيان، وهكذا روح بن زنباع الجذامى فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان.

(١) هو زياد بن سمية بنت الأعور، قدم إلى معاوية عام ٤٢هـ، فجعله أخاً له من ولد أبي سفيان واستلحقه بنسبه، لنفض يده من العلويين، فقد أضاف إلى مهامه السابقة ولاية الكوفة، كما جمع له الهند والبحرين وعمان، بحيث صار أثيراً لديه ولا سيما فى هذا المجال السياسى.
انظر .. أسد الغابة ٢/ ٢١٥، وتاريخ اليعقوبى - ٢/٢٠٩، والكامل - ٣/٢٤٤ - ٢٤٥.

وقد غلب على الوزير فى هذا العهد - الذى تطورت فيه هذه الوظيفة - أن يعرف باسم "الكاتب"، كما عرف الوزراء باسم "الكتاب" مثل "عبد الحميد الكاتب"، الذى ولى شؤون الوزير للخليفة مروان بن محمد وجرى هذا النظام خاصة فى أخريات عصر الأمويين. ومن هذا يتضح لنا أن الوزارة قد تبلور مفهومها عند خلفاء بنى أمية، وأن لم تكن قد ظهرت خصائصها جلية، وتقررت قواعدها فى وضوح وتمييز.

أما فى عهد بنى العباس الذين كانوا يميلون إلى توزيع السلطات غالباً - فقد استحدثوا منصب "الوزير" أثر انتصار الجيوش العباسية على الأموية، مراعين فى هذا تطور الدولة، ومقتبسين هذا النظام الوزارى من الدولة الفارسية ضمن نظم أخرى فى الحكم، وصار "الوزير" فى عهدهم الساعد الأيمن للخليفة، بحيث يباشر أهم شؤون المملكة، من تنصيب العمال وعزلهم، ومباشرة ميزانية الدولة فى مورد ومصرف، وربما ناب على الخليفة أحيانا، فتقلد كافة السلطات، وفى غير هذه الحالة كان يشرف على ديوان الكتابة أيضاً، إلى جانب قيامة بالمهام العادية لأمثاله، يقول ابن خلدون فى هذا الصدد: "فلما جاءت الدولة العباسية، واستفحل الملك، وعظمت مراتبه وارتقت — عظم شأن الوزير، وصارت إليه النيابة فى أنفاذ الحل والعقد، وتعينت مرتبته فى الدولة، وعينت لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر فى ديوان الحسبان، لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطاءات فى الجند، فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه.

وإضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر فى القلم والترسل لصون أسرار السلطان، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع، ودفع إليه. فصار اسم الوزير جامعاً لخطتى السيف والقلم، وسائر معانى الوزارة والمعاونة، حتى لقد نعى جعفر بن يحيى (البرمكى) بالسلطان أيام الرشيد، إشارة إلى عموم نظره وقيامه

بالدولة، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانيه نسما إلا الحجابة، التى هى القيام على الباب، فلم تكن له، لاستنكافه عن مثل ذلك" [1].

وإذا تتبعنا تطور النظام الوزارى فى العصر العباسى وجدنا أن ذلك — كما رأينا فى النص السابق - قد اختلف تبعا للظروف والأحوال، ففى بداية الدولة أقر أبو العباس نظام الوزارة متأثرا - فى أغلب الظن - بالفرس والخراسانيين خاصة، حيث كانوا الأنصار الفعليين للعباسيين. ومن ثم نصب أبو العباس الوزير أبا سلمة الخلال، وأقره على اختصاصات أنيطت به. وكانت هذه الاختصاصات محدودة، إذ لم تكن له صلاحية مباشرة سلطات جميع الدواوين، فديوان الجند والخراج لم يكونا تحت إشرافه، بل كانا فى قبضه خالد بن البرمك، حتى أن خالدا هذا رفض تلقيبه بالوزير أثر مصرع الخلال، مع أن كافة السلطات قد صارت إليه ومنها ديوان الخراج والجند [2]. ويؤيد هذا التطور التاريخى ابن طباطبا، فيقول. "والوزارة لم تمهد قواعدها، وتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك اتباع وحاشيه، فإذا أحدث أمر استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة، فكل منهم يجرى مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً" [3].

ويرسم لنا أستاذنا الدكتور حسن إبراهيم إجراءات ترشيح الوزير وتنصيبه، فيقول: "وإذا ما رشح شخص للوزارة أرسل إليه الخليفة اثنين من الأمراء يحملان كتاب الخليفة إليه، فيسير إلى دار الخلافة، ثم يمثل بين يدى

---

(1) مقدمة ابن خلدون — ص ٢٠٧.

(2) الفخرى فى الآداب السلطانية — ص ١٣٠.

(3) المصدر السابق — ص ١٢٧.

الخليفة، ثم ينصرف إلى حجرة أخرى ليرتدى لباس "التشريف" ثم يمثل به أمام الخليفة،فيقبل يده وينصرف. فإذا بلغ الباب وجد حصاناً مزيناً فى انتظاره، فيمتطيه ويسير إلى دار الوزارة، وقد سبقه كبار الموظفين والقواد ورجال البلاط وحجاب القصر والموالى. فإذا وصل ترجل وسط مظاهر الاحتفال، ثم يقرأ سجل تعيينه" (1).

محاذير الوزارة:

وينبغى أن نشير هنا إلى أن كثيراً من الوزراء على مر العصور الإسلامية - كانوا يتوجسون خيفة من الخلفاء ويتحسسون مواطن الخطر فى بلاطهم، وذلك لعدة أمور، لعل فى مقدمتها عدم تحديد الاختصاصات الموكولة إلى الوزير ومدى السلطات المخولة له، الأمر الذى يترتب عليه وقوع التصادم أحيانا بين الخليفة والوزير، أو بين الوزير والقائد الحربى مثلاً. كما كان من ضمن أسباب خطورة هذا المنصب السعاية والوشاية بالوزير لدى السلطان، ولا سيما من أولئك الذين يتربصون به الدوائر ويتحينون للايقاع به الفرص والمناسبات، ويمكننا أن نضيف إلى تلك الأسباب المؤدية بهذا المنصب الوزارى إلى الخسران أو الهلاك أحيانا طغيان الوزير واستبداده، وسوء استعمال السلطة، أو ظهور الثراء الفاحش المفاجئ على أحواله الاجتماعية، والتاريخ شاهد على تلك الأسباب التى تجعل منصب الوزارة محفوفاً بالمحاذير والمخاطر ويكفى أن نسوق فى هذه المناسبة نكبة البرامكة فى العصر العباسى على يدى الرشيد، ومن قبل قام أبو جعفر المنصور بوضع السم فى طعام أبي الجهم ثانى وزراء العباسيين، الذى استوزره السفاح فترة، وكان المنصور يتربص له الفرصة التى واتته بوفاة السفاح، ففعل. ويروى، أن أبا الجهم لما شعر بالسم يسرى فى بدنه نهض منصرفاً من مجلس المنصور فسأله: إلى أين؟ قال: إلى حيث بعثتنى يا أمير المؤمنين(2).

---

(1) د. حسن إبراهيم فى "النظم الإسلامية" — ص ١٣٢.

(2) ابن طباطبا فى "الفخرى فى الأداب السلطانية" ص ١٤٠.

ولعل ظاهرة التصادم بين الخليفة والوزير هي التي دفعت كثيراً من الوزراء إلى أن يحاولوا تفادى التسمية بالوزير، وربما فضلوا لقب الكاتب أو ما إلى ذلك تأمينا للمستقبل،ويرى بعض المؤرخين أن خالد بن برمك إنما كره تسميته "وزيرا" بسبب خوفه من انقضاض الخليفة عليه كما فعل ذلك بأبى سلمة الخلال سلفه، وذكروا أن السفاح قال له يوما: يا خالد، ما رضيت حتى استخدمتنى! ففزع خالد من كلام الخليفة، وقال: كيف يا أمير المؤمنين، أنا عبدك وخادمك؟ فضحك الخليفة، وقال: إن "ريطة" ابنتى تنام مع ابنتك فى مكان واحد، فأقوم بالليل فأجدهما قد أنسرح الغطاء عنهما فأرده عليهما، فبلغ الخوف بخالد مبلغاً عظيماً، وإذا هو ينكب على يدى السفاح ويقبلها ويقول: مولى يكتسب الأجرة فى عبده وأمته [1]!

وفى الغرب الإسلامي بالأندلس يذكر فى هذا المجال حادث بنى سراج وزراء بنى الأحمر ونكبتهم، بل أن ابن الخطيب المؤلف لهذا الكتاب – نفسه لم يكن بأحسن حظاً ممن سبقه من نظرائه الوزراء السابقين على مر العصور الإسلامية، فقد لاقى نفس المصير بطريق غير مباشر، وذلك عندما سعى به إلى القتل سلطانه الغنى بالله محمد الخامس لدى أمراء فاس المعاصرين، فنكلوا به وقتلوه حسبما أشرنا إلى هذا عند حديثنا عن ابن الخطيب فى المقدمة.

قمة منصب الوزارة:

بلغت وظيفة الوزير أوج قمتها فى الصدر الثانى من العصر العباسى،إذ جدت كثير من الأمور على الدولة، وناء الخليفة ببعض المهام التى لم ير بدا من إضافتها إلى الوزير، ففى عهد المهدى العباسى أسند رئاسة الدواوين والشؤون الإدارية إلى الوزير. وشمل هذا الاشراف على الجيش، وكان معنى هذا امتداد سلطات الوزير الذى كان تعيينهم يتم وفقاً لكفاءاتهم الكتابية والإدارية، وعليه

---

(١) د. حسن إبراهيم فى "النظم" ص ١٠٠.

فقد اتسع المجال أمام ذوى الشخصيات المبرزة فى هذا الميدان، كما لا ننسى أن رجالات البلاط كان لهم فى كثير من الاحيان رأى فى تعيين هذا الوزير أو إقصاء ذلك

ويأتى عهد الخليفة هارون الرشيد ليشهد التاريخ مرحلة من القوة والمجد فى مجال الوزارة لم نعرفه من قبل، ويبلغ نفوذ الوزير حدا عظيما أبان حكم هذا الخليفة حينما استوزر يحيى بن برمك، وألقى إليه بكافة مقاليد السلطة وقال له: "يابنى، قلدتك أمر الرعية، واخرجته من عنقى إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، وأعزل من أردت، وأنى غير ناظر معك فى شىء" وعين ولديه جعفر والفضل معاونين له.

فوكل الوالد أمر الشؤون الإدارية إلى ابنه الفضل. أما جعفر فقد تولى بعض أمور ديوان البلاط. ومن زاوية أخرى نرى الرشيد وقد فوض البرامكة الأشراف على سك العملة بدور الضرب، وذلك لتحديد معاير الدهب والفصة بالنسبة للمعادن الأخرى التى تدحل فى سكها بيد أن البرامكة كثيرا ما استغلوا مناصبهم السامية هذه فولوا من شاءوا من أنصارهم وأعوانهم، بل حصروا الوظائف القيادية فى هؤلاء الأشياع كما وضعوا أيديهم على موارد الدولة المالية وخزائنها "حتى كان هارون يطلب البسيط من المال فلا يصل إليه إلا عن طريق البرامكة، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه، فعظمت آثارهم، وبعدت حيلتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، وأحتازوها لأنفسهم عمن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء[1].

---

(١) ابن طباطبا فى "الفخرى فى الآداب السلطانية" ص ١٨٨ وما بعدها.

ويكفى للتدليل على مكانة جعفر البرمكى من نفس الرشيد، وعلو شأنه يومئذ ما روا ابن طباطبا حين ذكر: أن عبد الملك بن صالح بن العباس طلب إلى جعفر أن يخاطب الرشيد فى ثلاث حوائج. وهى: أن يقضي عنه دينا مقداره ألف ألف درهم، وأن يولى ابنه إحدى الولايات ليرتفع بذلك قدره، وأن يزوج الابن من ابنة الخليفة لأنها بنت عمه. فقضى له جعفر هذه الحوائج الثلاث من فوره، وقال له: أما المال ففى هذه الساعة يحمل إلى منزلك، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا. فانصرف فى أمان الله وعادل إلى منزله ليجد المال قد وصل قبله، وفى الغد أفضى جعفر إلى الرشيد بما جرى فأقره على ما فعل، بحيث لم يغادر مجلس الخليفة حتى كان قد قلد عبد الملك ولاية مصر، وزوجه من ابنته[1].

كذلك أمتاز عصر المأمون بظاهرة النفوذ الوزارى، فقد فوض هذا الخليفة إلى وزيره الفضل بن سهل ـ الفارسى الأصل ـ حرية التصرف فى الشؤون السياسية، وممارسة الأمور الإدارية، وقيادة المهام العسكرية، حتى خلع عليه لقبا جديداً هو "ذو الرئاستين"، ولكن المأمون ـ وقد ألفى الفضل استبد فيما وكل إليه، وصبغ رسوم الدولة بالتقاليد والعادات الفارسية ـ نكبة حين شعر بخطورته على سلطات الخلافة، تماماً كما حدث للبرامكة، وقد بلغوا قمة مجدهم الوزارى فنكل بهم والده الرشيد بين ليلة وضحاها، فأصبحوا أثراً بعد عين، وعرف حادثهم فى التاريخ باسم "نكبة البرامكة".

هذا ـ وقد مرت على الدولة العباسية فترات تراوحت فيها صفة الوزارة بين الضعف والقوة، وكان مرد هذا إلى شخصية الخليفة نفسه من جهة، وللظروف والملابسات التى كانت تواكب المهام الملقاة على عاتق الوزير، حتى آل الأمر فى

---

(١) ابن طباطبا فى "الفخرى فى الآداب السلطانية" ص ١٨٨ وما بعدها.

أواخر هذه الدولة إلى ضعاف الشخصيات عن الخلفاء، ولم ينكر الناس عليهم أن تسند الوزارة إلى غير المسلم، فقد نصب عضد الدولة وزيرين له كان أحدهما مسيحيا[1] . بل أن الوزارة أضحت وراثية كالخلافة أخيراً لدى بعض الأسر العريقة أو ذات الجاه أو ممن طارت لها شهرة فى دواوين الكتاب، مثل آل وهب وآل الجراح فى العراق، وفى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس خلع الوزارء على أنفسهم ألقاباً أشبه ما تكون بألقاب الخلفاء "مشرف الملك"، و"سعد الدولة"، وما إلى ذلك، وقد غلب هذا الاتجاه حينما أذنت شمس الخلافة الإسلامية بالأفول.

(١) الحضارة العربية (معروف) ص ٢٨ – ٢٩.

نــوعا الــوزارة

وزارة التنفيذ وزارة التفويض

امتازت الوزارة فى العصر العباسى بصفة خاصة بتنوعها إلى:

وزارى التنفيذ: وهى التى تكون فيها للوزير صفة شخصية،وإنما يقتصر أمره على تنفيذ تعليمات الخليفة فهو على حد تعبير بعضهم - همزة الوصل الوحيد بين الإمام والشعب[1] .

وقد فصل الماوردى ما ينبغى أن يتوفر من شروط فى "وزير التنفيذ" كما يلى:

١ - الامانة: لئلا يخون فيما قد أوتمن عليه، ولا يغش فيما يقدمه من إرشاد وتوجيه.

٢ - الصدق: حتى يكون موثوقا به فيما يخبر به أو يؤديه من واجبات.

٣ - النزاهة: فلا يقبل الرشوة فيما وكل إليه، ولا ينخدع فيلين جانبه.

٤ - أن يجتهد فى تنقية نفسه من البغضاء والعداوة للناس، فإن ذلك يحول بينه وبين الأنصاف، ويصده عن التعاطف.

٥ - أن يكون ذكوراً لما يفضى به إلى الخليفة أو عنه، لأنه شاهد له وعليه.

٦ - أن يكون على درجة فائقة من الذكاء والحصافة، حتى لا يدلس عليه فيشتد به الأمر عليه، ولا يموه عليه فيلبس عليه.

٧ - ألا يكون من أهل الأهواء، فيزل به الهوى من الحق إلى الباطل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم "حبك الشيء يعمى ويصم".

---

(١) أحكام الماوردى — ص ٢٥.

٨ ـ أنْ يتوفر على درجة من الحنكة والتجربة، بحيث تفضى به إلى الصواب فيما يدبره، ولا سيما وأنه مفروض فيه المشاركة فى الرأى والتخطيط، أو ينتهى إليه مع كثرة الممارسة، "ولا يجوز أن تقوم بذلك امرأة وأن كان خبرها مقبولاً، لما تضمنه معنى الولايات المصروفة عن النساء، لقول النبى صلى الله عليه وسلم: "ما أفلح قوم اسندوا أمرهم إلى امرأة". ولأن فيها من طلب الرأى وثبات العزم ما تضعف عنه النساء. من الظهور فى مباشرة الأمور ما هو عليهن محظور، ويجوز لآن يكون هذا الوزير من أهل الذمة، وأن لم يجز لن يكون وزير التفويض منهم [1]".

وزارة التفويض:

هى أن يفوض الخليفة إلى الوزير النظر فى أمور الدولة، وأن يدبر شؤونها دون الرجوع إليه، فيما عداً ولاية العهد، وأن يعزل الخليفة من ولاهم الوزير إذا ما تراءى له ذلك، وعلى هذا نرى أن سلطة "وزير التفويض" أعلى من سلطة "وزير التنفيذ": واخطر شأناً، ومجال الاجتهاد فيها مطلق للوزير.

وقد نص الماوردى على الشروط الواجب توفرها فيمن أسندت إليه وزارة التفويض، فقال:

"ويعتبر فى تقليد هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده، لأنه ممضى الآراء، ومنفذ الاجتهاد، فاقتضى أن يكون على صفات المجتهدين، ويحتاج فيها إلى شروط زائدة، وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من امرى الحرب والخراج، خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما، فأنه مباشر لهما تارة، ومستنيب فيها أخرى، فلا يصل إلى استنابه الكفاءة إلا أن يكون منهم، كما لا يقدر على المباشرة إذا قصر عنهم، وعلى هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنتظم السياسة، حتى أن الملك المأمون رضى الله عنه كتب فى اختيار وزير: انى

---

(١) الماوردى فى "قوانين الوزارة" ص ٢٦ وما بعدها.

التمس لأموری رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا عفة فی خلائقه. واستقامة فی طرائقه، قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب، أن ائتمن على الأسرار قام بها، وأن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكنه الحلم وينطقه العلم. وتسد اللحظة، وتعينه اللمحة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، أن أحسن إليه شكر، وان ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده. يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه، وحسن بيانه.

أما مدى سلطات وزير التفويض فيجملها الماوردی فی قوله:

"ويجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه، وأن يقلد الحكام، كما يجوز ذلك للإمام، لأن شروط الحكم فيه متميزة، ويجوز أن ينظر إلى المظالم ويستنيب فيها، لأن شروط المظالم فيه معتبرة، ويجوز أن يتولى الجهاد بنفسه وان يقلد من يتولاه، لأن شروط الحرب فيه معتبرة، ويجوز أن يباشر الأمور التى دبرها، وأن يستنيب فی تنفيذها لأن شروط الرأی والتدبير فيه معتبرة".

ويخلص الماوردی من هذا النص على الأمور التی لا يجوز لوزير التفويض ممارستها فيقول:

"وكل ما صح من الإمام صح من الوزير، إلا ثلاثة أشياء:

أحدهما: ولاية العهد، فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى، وليس ذلك للوزير.

الثانی: أن للإمام أن يستعفی الأمة من الإمامة، وليس ذلك للوزير.

الثالث: أن للأمام أن يعزل من قلده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام، وما سوى هذه الثلاثة فحكم التفويض إليه يقتضی جواز فعله"

وينتهی الماوردی من هذا البسط إثبات الفصل بين وزارتی التفويض والتنفيذ فيقول:

"ويجوز للخليفة أن يقلد وزير تنفيذ على اجتماع وانفراد، ولا يجوز أن يقلد وزيرى تفويض على اجتماع، لعموم ولايتهما، كما لا يجوز تقليد إمامين، لأنهما ربما تعارضا فى العقد ولايتهما، كما لا يجوز تقليد إمامين، لأنهما ربما تعارضا فى العقد واحل والتقليد والعزل. وقد قال الله تعالى ﴿لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [1].

وعلى هذا تتضح لنا الفروق بين وزارتى التنفيذ والتفويض فيما يأتى:

١ - إنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم، وليس ذلك من حق وزير التنفيذ.

٢ - إنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد برأيه فى تقليد الولاة ولاياتهم وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٣ - إنه يحق لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ووضع الخطط العسكرية وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٤ - إنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى بيت المال بالقبض والدفع، بينما ليس ذلك لوزير التنفيذ [2].

ومجمل القول فى نهاية هذا العرض أن وزارة التفويض أدق موقفاً وأزيد شروطاً، وأن مجال الاختصاص فيها أوسع.

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان: ٢١ — ٢٢.

(٢) أبو يعلى فى "أحكامه" ص ١٦.

الــوزارة فى الأنــدلس

بـدأ هـذا التقليد الـوزارى يظهـر فـى الأنـدلس فـى بدايـة العهـد الأمـوى وذلـك[1] فى صورة مـا سمـى لـدى الأمـراء باسم "الحاجـب" وأحـيانا كـان يدعـى بالوزيـر، كما كـان يخلـع علـيه لقـب "ذو الـوزارتين"، ولم يكـن اسم الحاجـب يعنـى فـى الأنـدلس مـا كـان يعنـيه فـى المشـرق لـدى الدولـتين الأمـوية والعباسـية مـن حجـب السلطان عن الـناس، وإنمـا كـان يـتولى الحاجـب فـى تلـك المـنطقة مـن الغـرب الإسـلامى مـا كـان يـتولاه الوزيـر فـى الشـرق الإسـلامى يومـئذ، بـل كـان يمـتاز عـنه برئاسـة مجلـس الـوزراء التـى تـتولى الإشـراف علـى الأمـور بالـبلاد، وقـد اتضـح هـذا الاشـراف الوزارى علـى المجلـس عـندما تـوزعت الاختصاصـات علـى الـوزراء، نتـيجة نضـوج الدولـة، ومـا جـد علـيها من مشـكلات وواكـبها مـن تطـورات، وكـان أمـر اختـيار هـذا المشرف على الوزراء موكول إلى الخليفة نفسه، يقول ابن خلدون فى هذا الشأن:

"أمـا دولـة بنـى أمـية فـى الأنـدلس فأبقـوا اسـم الوزيـر فـي مدلـولة أول الدولـة، ثم قسـموا خطـته أصـنافاً وأفـراداً لكـل صـنف وزيـراً. فجعلـوا لحسـبان المـال وزيـراً، وللترسـيل وزيـراً، وللنظـر فـى حـوائج المـتظلمين وزيـراً، وللنظـر فـى أحـوال الـثغور وزيـراً، وجعـل لهـم بـيت يجلسـون فـيه علـى فـرش منضـدة، ويـنفذون أمـر السـلطان هناك، كـل فـيما جعـل لـه، وافـرد للـتردد بيـنهم وبـين الخلـيفة واحـد منـهم، ارتفع عـنهم بمباشـرة السـلطان فـى كـل وقـت، فارتفـع مجلسـه عـن مجالسـهم، وخصـوه باسـم الحاجـب"[1]، فهـذا التنظـيم يشـبه إلى حـد كـبير - الهيـئة الإداريـة فـى وقتـنا الحاضر.

أمـا اختصـاص هـذا الحاجـب فكـان شـاملاً للشـؤون المدنـية والعسـكرية، علـى نحو مـا كـان يخـتص بـه الحاجـب المنصـور محمـد بـن أبـى عامـر فـى أخـريات دولـة الأمويين الأندلسية.

---

(١) المقدمة لابن خلدون — ص ٢٠٨.

ففي عهد خليفة أموى وهو هشام المؤيد بالله (٣٦٦هـ - ٣٩٩هـ) اضطلع الأمراء للقيام بمهام الملك، حيث هذا الخليفة كان ما يزال فتى، ميالاً بحكم سنه إلى اللهو واللعب بين الحصيان و آلات الطرب، فشجع الحاجب المنصور هذه الميول لدي هشام. وقام بالحجر عليه، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته، "ولما كان هشام مندرجاً في طي كفالة الحاجب المنصور بحيث لا ينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور في قليل أو كثير، إذ كان في نفسه واصل تركيبه، مضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسه النساء ومحادثة الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب البركات، والآلات المنسوبات" ولكي يستكمل ابن أبي عامر نفوذه في الدولة دون مناوىء أو منافس فقد لجأ إلى نكبة حاجب الدولة جعفر بن عثمان المصحفي، وذلك بأن أوعز إلى الخليفة أن يصدر أمرا بذلك، فقبض عليه في ١٣ شعبان ٣٦٧هـ، كما قبض على ولده وأهله، وصودرت أمواله وأموالهم، واستمر المصحفي في سجن الزهراء بقرطبة حتى مات عام ٣٧٢هـ (٩٨٢م) وتكهن الناس حول طريقة موته، فمنهم من قال إنه مات خنقا في مطبقه، ومنهم من قال إنه دس له السم في شراب قدم إليه.

وهكذا سيطر المنصور محمد بن علي على مقاليد الدولة بعد أن تلخص من المصحفي وأنصاره، وتمكن في النهاية من اتخاذ سمة الملك والتسمي بالحاجب المنصور، وخاصة بعد أن نجح على الصعيد الحربي في تحقيق الانتصارات الباهرة على الأسبان. ويعتبر هذا الحدث في تاريخ الحجابة من أقوى الاحداث التي لم تتح إلا للبرامكة في الشرق، ولكن الحاجب المنصور تمكن بمثل هذا الدهاء وقوة الشخصية ومواتاة الظروف ان تطول فترى سلطته، وأن يخلص الأمر في النهاية إلى تأسيسه ولو بطريق غير مباشر – الدولة العامرية (٣٦٦هـ – ٣٩٩هـ / ٩٧٦م - ١٠٠٩م) وهذه قمة أحداث الوزارة والحجابة في الأندلس،

بحيث لم يجر على مسرح السياسة الأندلسية في هذا المجال مثل هذا الذى كان من أمر المنصور محمد بن على بن أبى عامر.

أما لقب "ذو الوزارتين" فكان يعنى الجمع بين خطتى السيف والقلم، وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠هـ - ٣٥٠هـ) أول من استعمل هذا اللقب فى الأندلس، متأسيا في هذا ببنى العباس، فقد لقب هذا الخليفة الأموى وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد بهذا اللقب، واجزل له راتبه، وكان يتولى هذا الوزير بعض المهام التى كان يتولاها الحاجب عادة، كما أسندت إليه قيادة الجيش، بالإضافة إلى رئاسة ديوان الكتابة، تماماً كما كان للشأن للوزير لسان الدين ابن الخطيب، فى عصر أبى الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة، الذى ألقى إليه بخاتمه وقلده قيادة الجيش، فكان "المثل الشخصى للملك بتعبيرنا الحاضر، الأمر الذى استحق عليه أن يخلع عليه نفس اللقب "ذو الوزارتين".

راتب الوزير:

يتحدث المؤرخون عن ضخامة مرتب الوزير فى العصور الوسطى الإسلامية، وإن ما كان مقرراً له لم يقتصر على شخصه، وإنما كان مثل ذلك بنسب معينة يشمل أولاده وأحيانا أخوته، وذلك بالإضافة إلى الخلع والهدايا والإقطاعات فى المناسبات المختلفة ولا سيما الدينية، فعلى سبيل المثال يروى أن وزير الخليفة العزيز بالله الفاطمى (يعقوب بن كلس) كان يتقاضى مائة ألف دينار من الذهب سنوياً، وأن ثروته بلغت ما قدر بأربعة آلاف دينار من الجواهر وخمسمائة ألف دينار من المصوغات، بالإضافة إلى أربعة آلاف من المماليك كان قد اتخذهم من ماله الخاص، وهذا يعطينا صورة واضحة عن البذخ الذى كان سائداً لدى الفاطميين من ناحية، وعن مقدار ما كان يتقاضاه الوزراء يومئذ من رواتب ومخصصات وما كانوا يتوفرون عليه من ثروات طائلة.

كذلك كان راتب يحيى بن هبيرة وزير الخليفة المقتفى العباس (٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ) مائة ألف دينار من الذهب على مدار العام.

أما الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى والى عكا فقد كان راتبه لا يقل ضخامة عن نظرائه من وزراء الدول الإسلامية، ولا أدل على ذلك من ثروته فى قصوره التى كان يتوفر عليها عام ٥٠١هـ، والتى بلغت ٦٠٠٠ دينار من الذهب، ومن حصيلة ثروته الحيوانية ما يقدر بأربعين ألف دينار من الذهب سنويا وغير ذلك [1].

وحول المؤلف الوزير ابن الخطيب (المؤلف) فقد تحدث التاريخ الأندلسى والمغربى بأفاضة حول ما كان يتوفر عليه من القصور وما كان يقتنيه فيها فى كل من غرناطة وسلا، وبالإضافة إلى الضياع والاقطاعات فى فحص غرناطة خاصة، ومنها حديقته التى كانت أثيرة لديه، حيث تضم قصراً خاصاً به فى ضاحية "عين الدمع" من أحياء العاصمة الأندلسية.

---

(١) د. حسن إبراهيم فى "النظم الإسلامية" ص ١٥٤ — ١٥٥.

كتاب

الإشـــارة إلى أدب الـــوزارة

(٥٢ – ب) الإشارة إلى أدب الوزارة

أما بعد حمد الله الذى جبل ملكه أن يؤازره الوزير، وعن أمره أن يدبره المدبر أو يؤيده الظهير، والاستعانة على الوظائف التى يضطر إليها، ويعتمد عليها، فهو الولى النصير.

والصلاة على سيدنا محمد، الذى له القدر الرفيع، والفخر الكبير، والرضا على أله وعشيرته، فحبذا الآل والعشير.

فأن من دعا الله أيها الوزير السعيد بيظفر عليك لباسها، وعزة يصدق لك قياسها، وأيام يروض لك شماسها، ويدفع - بيمن نقيبتك - باسها، فأنما دعا للدولة بتأييدها، وللملة بتمهيدها، وللملكة بتجديدها. فقد ظهر - من عنايته بك - اختيارى، ومن حسن أثره - فى نصرك - ايثارى. وهو الكفيل لك بالمزيد من آلائه، وموصل نعمائه.

وأنى لما رأيت برك دينا يجب على قضاؤه، ولا يجمل بى الغاؤه. وتخيرت لك فى الهدايا ما يملأ اليد، ويصاحب الأمد، وينجد العقب والولد، فلم أجد أجدى من هدية الحكمة، التيى من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيراً، ومن أهل لرتبتها السامية فقد احل محلاً أثيراً [1]، والوصاة التى تنفعك من حيث كنت وزيراً، والمواعظة التى تفيدك تنبيها من الغفلة وتذكيراً، فأخترت لك وضعاً غريباً، وغرضا قريبا، أن لقيت به ما جمح من أخلاقك قولك وألانه، وأنهج لك الصواب وأبانه، جانحا إلى الاختصار، عادلاً عن الإكثار، منسوباً إلى بعض الحيوان، على عادة الأول ممن صنف فى السياسة من قبلى، أو ذهب لما ذهبت

---

(١) فى ك : كثيراً، وهى هنا أنسب وأصوب.

(٥٣ : ب) إليه في فعلي، فقلت، وبالله العون والقوة، ومنه نلمس السعادة المرجوة:

حكى من يكلف برعي الآداب السوايم، ويعني باستنزال الحكم الحوايم، ويقيد المعاني الشاردة على ألسنة البهائم، أن نمرا يكنى أبا فروة، ويعرف بالمرقط، كانه بالنجوم منقط. شتر الكفين، بعيد ما بين العينين. كأن ذنابه ذؤابة كودى أو جديلة مركب. وكأن المجرة اوردته غديرها، والثريا نثرت عليه دنانيرها. عظيم الوثوب والطفور، حديد الناب والاظفور، في نجد وغور، وكرى جور وكور، وجرم ثوبه مسلاح سنور. استوزره ملك الوحوش، وقاده تدبير الملوك وعرض الجيوش. فحل من ذاك الأسد، محل الروح من الجسد. وكفاه ما وراء بابه، ودافع الأعداء عن جنابه، ووفر من جبايته، وأجرى رسوم عزه وأبايته. وأخلص له عقيدة نصحه، وتبرأ من شين الغش وقبحه. حتى عمت الهبة وخصت، وشرقت الأعداء وغصت. وعرفت الوحوش أقدارها، وألفت السياسة مدارها، وأمنت السبل والمسالك، وخاف الملوك سطوة المالك. وحسنت الأخبار عن سريرته، وشهدت - بالعدل السني - جيرته، لما اسر وأستسر. فأذكر من قوته ما عرف، وقارب من مدى العمر الطرف، فمال من أجله وانحرف، وكع عن الملاذ وانصرف. فأصبح متنه هزيلا، وجسمه ضئيلا، ونشاطه قليلا، ورأى عبء الوزارة ثقيلا، أن الحق أقوم قيلا.

دخل على الأسد خلوة مشورته، وخرج له صورته، وقال:

أيها الملك السعيد، عشت ما بدا لك، وحفظ ميزان الطابع عليك اعتدالك. ولا زلت في هوب السطا، بعيد الخطا، قائما في جهاد الطعة من القطا. ووهن من عبدك العظم، وضعف الافتراس وساء الهضم، وكاد ينتثر النظم. وبأن في آلة خدمتك الكلال ،واستوفى الهرم والاضمحلال وأربى بمالك عن تقصير لجنبه - ضعفي ،وان عظم - لفراق سدتك - لهفي فسوغني التفرغ لمعادى ،والنظر في بعد

طريقي وقلة زادي ، واستكف من يقوم بهمتك ، ويبوء بعبء خدمتك . فما على استحثات الأجل من قرار ،وما بعد العشية من عرار [1].

من عاش أخلفت الأيام جدته ، ، ،وخانه ثقتاه السمع والبصر

وقد علم الذي بين النواصي،و علمه المحيط بالأداني والأقاصي،و ستره قد شمل المطيع والعاصي،أنني ما خنت أمانته،ولا آليت جهدا في أعانتك. ولا تعمدت جلب ضر، ولا خلطت حلو النصيحة بمر، ولا ستفسدت "٥٣: ب" لك قلب حر ولا استأثرت لك بمال، ولا كنت يوما لضدك بممال، ولا تلقيت سهما بإهمال، ولا ضاق ـ لى عن خلقك ـ درع احتمال،ولا أعملت ـ في غير رضاك و طاعتك ـ حركة يمين أو شمال [2].

فقال له الأسد :

أيها الوزير الصالح،حسن جزاؤك،كما وضح للصدق اعتدادك، ولحقت بالعوالم الشريفة مقوماتك المفضلة وأجزاؤك. قلت صوابا، واستوجبت منا جزاء ومن ودنا ثوابا. ولو كان شيئاً في وسع ملكنا جبره، لبد لنا لك العزيز وهان علينا أمره، لكن التحليل على عالم التركيب محتوم، والمصير معلوم، والفراق ذات الألقاب والرسوم.

اسمع ، فقد أسمعك الصوت إن لم تبادر فهو الموت
قل كلما شئت، وعش ناعما آخر هذا كله الموت

وقد أمرنا بعهدك لولدك، ونقلنا الوزارة من يدى إلى يدك،ورجونا ألا يقدم حسن مقصدك، من سعة نفسك، وسلسيل جسدك. وكان للنمر جرو قد استكمل سن الوقوف، واتصف بالانقطاع عن الحكمة والعكوف، مختار الأمانة والفراسة،

---

(١) إشارة إلى قول الشاعر:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

(٢) في ك : وشمال، ففي نسختنا الصواب.

صادقة فيها النجابة ومخايل الفراسة. كلف بالنظر والدراسة. كريم الطبع، رحيب الضرع. طيب الأصل سامى الفرع لا تـوده المعضلات، ولا توافق فطنته المشكلات، ولا تجاذبة الشهوات، ولا تطرق كماله الهفوات. حان على الرعية، حفظ لشروط السياسة المرعية. قد افرغ فى قالب الكمال جوهره، وتطابق مخبره ومظهره. وتفتق عن كمال العفاف وحسن الأوصاف زهده. فاتخذ الملك صنيعا فنفض له الأطراف، واستقدم الأشراف، واستدعى فوقه الجهاد، وطوايف النساك والزهاد. واحتفل الوليمة، وأفاض النعم العميمة. واستحضر النمر وقد تحلى بحلية متماسك، وبدل فروة الوزير بفروة الناسك. فأعلق فى المجتمع برضاه عن سيرته، واعترف بنصح جيبه وفضل سريرته، وأعلن بستويغ أوبته، وقرب القربان بين يدى توبته. وحفت به أرباب الديانة ونساكها، وقومة الشريعة الذين فى أيديهم ملاكها. فرفعوه على رءوسهم وأكتافهم، حذو معتادهم. وجهروا حوله بصحفهم المحفوظة، وأدعيتهم الملفوظة، ونسكهم المحدودة المحظوظة. حتى أتوا هيكل العبادة، ومحل أهل النسك والزهادة، وخدمة الكواكب السادة، والمتشوفين إلى السعادة، والمنسلمين عن كدرات سوء العادة، وقصده ولده سيفتح بدعائه العمل، ويسترنى بوصاياه الأمل.

فلما فرغ النمر من استقبال محرابه (٥٤: ب)، وقد تجرد من العلايق تجرد السيف من قرابه، حن الولد لوالديه، ثم سجد بين يديه، وقال بعدما أطرق، وطرفه من الرقة قد اغرورق، ونور السعادة فوق جبينه قد أشرق:

أيها المولى الذى قرنت بحق البارى حقوقه، فما فى المنعمين من يفوقه، أوضحت لعله ايجادى مذهبا، وكنت لنفسى الجزئية باتصال العقل الكلى سببا، ثم كلفت وكيفت، وعند تقاصر الطباع وفيت، ثم داويت من مرض الجهل وشفيت، وحملت على أفضل العادة، وأظفرت اليد بعروة السعادة. وأنا – إلى وصلتك اليوم – فقير، ورأيى فى جانب رأيك – حقير. ودعاؤك لى ولى ونصير، ولحظك فى تصرفاتى القاصرة نافذ بصير.

فأقبل عليه بوجه بيضه الشيب والنسك، وأخلاق تضوع من أنفاسها المسك، وتبسم تبسم الذهب الأبريز أحاطه السبك. قال: يا ولدى الذى رجوته لخلف شخصى، وتتميم نقصى، ولعل الحكمة عنى، وستر الجزء الأرضى منى. طالما ابتهلت إلى الله فى سدادك. بعد تخير وعاء ولادك، واستدعيت حكماء الهياكل المقدسة لإرشادك فلو استغنى أحد عن موعظة توقر من نوم، أو سداد رأى يعصم من لوم أو استشعار مناصحة تجد ثناء قوم، أو استعراض تجربة تغلى من سوم، لكنت بذلك خليقا، ومن أسر الافتقار طليقا، لكن الإنسان لما يريه ذا فاقة، ومتصف بافتقار إلى غيره واضاقة، وليس بالانفراد مع كونه مدينا من طاقة، ومتى ظن بنفسه غير ذلك فهى حماقة، وبحسب جلالة ما يحاوله أو يحاوره، يكون افتقاره لمن يعارضه ويشاوره. وقد خرجت من الوزارة إلى منزلة لا تطمئن بمن نبذ طاعته الحق وتقواه، ورضى عن نفسه واتبع هواه. فإن قهرت من الشهوة المردية عدوك، وبلغت عن ملكة الهوى مرجوك، وألفت قرارك فى ظل الحكمة وهدرك، تذلل لك اقتضاؤها، وتمنى عطاؤك. وطاب فيها خبرك، وحسن عليها أثرك، والله لا يدرك، وإلا فلست بأول من هوى ورمى، من بعدما شوى.

وأنا موصيك، والله يبعدك من الخطل، ويقصيك ويبين لك قدر هذه الرتبة بين الأقدار، ثم جالب بعض شروط الاختيار، ثم حاصر بحسب من الإمكان، فى ستة من الأركان، واسأل العالم يعافينى إلى سداد فعلك، وقوله الغنى عن قدرتك وصولك، ويجمع لك مواهب توفيقه التى لا تحصى بالعد، ولا تنال بالعد، ما يتكفل برضاه عنك، حتى تحب ما أحبه لك، وتكره ما أكرهه منك، وأن يختم مدتك المتناهية بأسعد ما انتهت إليه آمالك، وتطاول نحوه سؤالك، وهو حسبى، ونعم الوكيل.

بــــاب

بيان قدر رتبة الوزارة فى الأقدار

وبعـــض شروط الاختيـــار

(٥٤ : ب) اعلـم يـا ولـدى، هـذه الرتبة لمن فهم وعقل مشتقة من الوزر، وهو الثقل، لانهـا تحمـل من عبء الملك وثقله ماتعجز الجبال عن حمله. وهى الآلة التى بها يعمل، وبحسـب تبايـنها بتـباين الانقـى والأكمـل، وعصاه التى بها يمشى،ويحتطب ويحشى، ويلـتقم ويمشـى، ويجمـع ويعشى. ومخلبه الذى به يرق الفرخ، ويحرس العش، ومنخله الـذى يعـرف بـه مـن يناصح ومـن يغش، ومرآته التى يرى بها محاسن وجهه وعيوبه، وسمعـه الـذى يتوصـل تجاهه لمعرفة الأشخاص المحجوبة. وإذا فسد الملك وصلح الوزير، ربمـا نفعـت النيابة،واستقام الـتدبير، وصـلاح الأمـر بعكـس هـذه الحال، محسوب من المحـال، لأنه الواسطة القريبة، ونكتة السياسة الغريبة. موقعه من الملك موقع اليدين من الجسد، التين فى القبض والبسط عليهما يعتمد.

قالـوا: الملـك طبـيب والـرعية مرضـى، والوزيـر تعرض عليه شكايتهم عرضا، والنجاح مـرتبط بسـداد عقلـه، وصـحة نقلـه. فـإذا اخـتل السفير بطل التدبير، وإذا تقرر وجوب الأمامـة، ونصبها، وعقدها، وغضبها، وكانت صورتها إلى الوزارة هذه الضرورة، ومنزلتها مـنها هذه الصورة، وهى فى الواجب شروط، ولا يستقيم له بغيرها ضابط، كيف لا يكون قدرها خطيراً، ومحلها أثيراً!!؟ وقول النبى الذى اصطفاه الله برسالته وكلامه، واختصه بخصيصـى اكـرامه، مع كونه معصوما بعصمة ربه، عتيا بدفاعه، متأنسا بقربه ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [1] دلـيل علـى محلـها مـن شدة المكايد، إلى غير ذلك من الآثار المجلوة، والمحاسن المتلوة، والأشعار بأن المنصب منصب الأخوة.

---

(١) سورة طه الآيات: ٢٩-٣٢.

فصــل

وأعلـم أن الأولين من حكماء يونان، فى سالف الزمان، كانوا يعرفون فضل هده المهنة (بين) المهـن، ويجعلـون تعظـيمها مـن الشـرايع والسنن، ويتحققون بجبائها فى المعادن الشـريفة، والبـيوت العتـيقة، والاحسـاب المـنيعة. ويختـبرون نصب المواد فى أبناء أهل الترشـيح، ويعـنون فـيها بالنظـر الصـحيح، فمـن قامـت علـى صـلاحه الشواهد، وشهد بأهليته الموالد، عين فى الأرزاق قسمه، وأثبت عند الثقاف اسمه، ثم يؤخدون (٥٥: ب) بالتعلـيم والدراسـة، ويـتعاهدون بـالآداب تعاهـد الغراسة، ثم يعرضون عند الترعرع على أهـل الفراسـة، فمتـى تأكـد القـول لديـه ورجـح، وبـان فى أحدهم الفضل ووضح، خرج وكرب، ومرن وجرب، ثم استعمل وقرب.

فصــــل

وكـان الوزراء يختارون من الجوارى للمباضعة، من ظهر منها فضل التمييز، وأخلصها الاختـيار خلـوص الذهب الابريز، ولا يغشوهن فى سكر مسقط، ولا فرح مفرط، ولا كسل مقعـد، ولا حـزن مفسـد، ولا غضب مبرق مرعد. وإذا هم بطلب الولد استفتى الكاهن فى اختيار الوقت الراهن، فلا يطلق له ذلك إلا فى الأوقات المختارة، والنصب الخليقة بتلك الأثـارة، وبعـد إصـلاح القمر والشمس، والكواكب الخمس، واستحضار الهيئات النابهة، والأشـكال المتناهـية المتشـابهة، وتقـريب القـرابين بـين يـدى الآلهة، ثم يلقى الجاريه، وكلاهما يقول قولاً منقولاً عن الصحف الموصوفة، والكتب المقدسة المعروفة، معناه: يا من قصـرت الألـباب عـن كنهه، وعنت الوجوه لوجهه، قد اجتمعنا على مزج مواد لا نعرف مـا تحدثـه مـنها، ولا مـا تظهـره عـنها. وتلقيـنا توفيقك من سعينا بمقدار المجهودات، وأنـت مـلاذ الوجـود، وفـيض الجـود، ولـيس تضـرعنا لك بالمسألة، وبابتهالنا برحمتك المسـتنزلة، تنبـيها لاقدارك المصيبة السداد، الجارية بمصالح العباد، إنما هو بحساب ما نحـرز بـه فضـل الـرغبة إلـيك، والسـؤال لما لديك، ونحن بحسن اختيارنا أوثق بآرائنا، وقضاؤك السابق من ورائنا، فلك الحمد على قضائك، والشكر على آلائك.

فصـــل

وكـان الوزيـر فـيهم يشـترط فـيه أن يكـون قـديم الـنعمة، بعـيد الهمة، مكين الراحة والـرحمة، كـريم الغـيب، نقـى الجيب، مسدد السهم، ثاقب الفهم، واثباً عند الفرصة، واصفاً للقصة، مريحاً فى الغصة، موفور الأمانة، أصيل الديانة، قاهراً بالهدى، مستشعر العفـة، معتدل الكفة، حذرا من النقد، صحيح العقد، راعيا للهمل، نشيطا لعمل، واصلا للـذمم، شـاكراً للـنعم، خـبيراً بسـير الأمـم. ذا حـنكة بالـدخل والخـرج، عفيف اللسان والفـرج، غير مغتاب ولا عيابه، ولا ملق ولا هيابه، مجتزئا بالبلاغ، مشتغلاً عند الفراغ. مدثـرا للصـدق، صـادعاً بالحق[1] حـافظاً للأسرار، مدثراً للأبرار، مبايناً (٥٥: ب) بطبعه لخلـق الأشـرار، وقد فاق قدر هذه المرتبة بين الأقدار، وأعطى وزانها ـ والحمد لله حقه ـ عند الاعتبار.

ونحن نذكر بعد أركان الوصاة، ونفرغ لذكر حكمها المحصاة وفصولها المستقصاة.

---

(١) فى ك : صاعدا بالحق، وكلاهما مناسب للمعنى.

الركـــن الأول

وهو العقد الذى عليه المعول، فيما يستشعره الوزير بينه وبين نفسه، ويجعله مجيراً له في يومه وأمسه

وأعلم، أن الملكة البشرية، الخليقة بالافتقار الحرية – لما كان راعيها مركبا من اضداد متغايرة، وأركان متفاسدة متضائرة، بجذبه كل منها إلى طبعه، بين أخذ برجله، ورافع بضبعه، لم يكمل حراسة ما وكل إليه بنفسه، ولا وفت بضم منتثرها آلات حسّه، فاحتاج إلى وزير من جنسه، ينوب فيما ناب عن شخصه، ويضطلع بتميم نقصه، وبتيقظ سهوه، ويجد عند لهوه. فيحتاج من اتصف بهذه الصفة إلى كمال فى الفضل (٥٦: أ) وحاجة فى المعرفة، يعدل ما عاض الملك من أمور ملكه، ويوفى ما عجز من نظم سلكه، حتى تبرز المملكة فى أتم صورتها، وتبلغ الكمال الأخير بمقتضى ضرورتها. وتقوى الله – عز وجل– أولى ما قدمته، ثم تدليل نيتك لمن خدمته، ومقابلة ثقته بك بالوفاء الذى سددت أن الزمته، وحمل الخاصة والعامة على حكم الشرع، فإن لم تبن الأمر على ذلك هدمته.. وأفضل ما وهب لك، فيما قلدته من قلادة، وعودته من عادة، سيادة شمول الأمن وعموم الرضا، وظهور الأمانة، والصدق فى كل غرض مقتضى. وحسن النية، وطهارة الطوبة. ورعاية الإحسان، وإفاضة الرأفة فى عالم الإنسان، وزيادة الكفاية بحسب الإمكان.

وأعلم أنه من لا يضبط نفسه – وهي واحدة – لا يضبط أمر الكثير من الناس، على تباين الأغراض وتعدد الأجناس. فأربأ بنفسك عما تجره الشهوات من النقص، وازجرها عن كلب الحرص. وألن جانبك لمن ظهر كماله (٥٦:ب) وقصرت عنه حاله.

وأعلم أن بقاء النعم على كتفك مقرون ببقائها بين يديك، وجريان الأمور على مذهبك، بحسب استقامتها بسببك، وقل أن يتهيأ فى هذا العالم عمل عار من الملأمة، أو سالم من

التجوز كل السلامة، فليكن خطؤك فى الإحسان للإنسان، لا فى الإساءة بالفعل واللسان، فقليل الخير ربما تخارقت ثمرته، وآتت أكلها ضعفين شجرته. وإذا أهممت بزوال نعمة عن جان، فأذكر كم تنال تلك النعمة من مكان، وكم فيها لمن لا يستوجب عقابا، ولاكشف عن سر نقابا. وقد قالوا: الأشراف تعاقب بالهجران، ولا تعاقب بالحرمان. وبما قالت جرى ركن إليها ولم تعلم، تعاقب ثم تأوه لفقد معروفها وتألم.

فأجعل هذه الذرائع شفعاء فى بقائها، ودواعى لاجرائها، يتكفل لك بارئك باحراز السلامة، ورفع الملامة، والمثوبة فى القيامة. واستحمل التواضع فى هبوب روحك، وتخفف عن الجبهة والنجه[1] بتعريضك وتصريحك، فربما خشن جواب لا يغسل طبعه، ولا يوجد من يرفعه، ولا يزيله عقاب (٥٧ : أ) قاله ولا يعرفه. سيما فيمن استحق الموت، أو تيقن الفوت.

واصبر على ذوى الفاقة، وأهل الإضافة، بجهد الطاقة، وأياك والضجر، فأنه يكدر الصفو، ويذهب العفو، ويبقى الفلتة الشنيعة، ويفسد الصنيعة، وقد ركل أبو عمار الوزير رجلا برجله، فرفع إلى الخليفة من أجله:

قل للخليفة يا ابن عم محمد ... أرفع وزيرك أنه ركال
أشكله عن ركل الرجال وأن ترد ... ما لا فعند وزيرك الأموال

فتركها مثلا يذكر، وفلتة تنكر.

فصل

وإذا باشرت عملاً فتتبع أصوله، دون فضوله، وأبوابه دون فصوله، ولا تشتغل بفروعه المتشعبة عن أصوله، ثم اصعد بعد إليها، واعطف عليها. ولا تغن بتفصيله عن جملته، فيضيع سائره قبل أنات الوقت ومهلته، ولا ترفعن عملا يخصه. وأقل ما يحلق من ازدحام الأعمال، تطرق الفساد إليها والاختلال. عند الاستحثات والاستعجال، وضيق

---

(١) النجه: المسارة بما فى الفؤاد من الأسرار أو العواطف، والاسم منه: النجوى.

المجال، وتهبيب[1] العمل مطيل للزمان، منب عن ضيق الجنان (٥٧: ب) ولا تركن في الاستخدام إلى شفاعة، غير نفاعة، ما لم تكن شفاعة الكفاية، والأمانة والرعاية.

وأعلم بأن من ظهر حسن صبره على شدائده، في حوادث الدهر ومكائده، فالصبر قدر مشترك، فيمن أخذ أو ترك، والنفس لا تنفك عن معترك.

وأعلم أن الراحة عند الحاجة إلى الحركة، تهدى التعب الضرورى، لمن أغفله فيها وتركه، ولا تقلن شيئًا تقلدته، بعدما حسبته من وظائفك وعددته، فيظن بك من الخروج عن طبعك الذى جبأت عليه، بمقدار ما خرج إليه. ولا تحتجب عن الناس يفسد بعضك، ويضعف من السياسة فرضك، فتكتمل النصحية سماؤك وأرضك. ولله در القائل:

كم من فتى تحمد أخلاقه ... وتسكن الأحرار فى ذمته

قد كثر الحاب أعداءه ... وتسلط الذم على نعمته

ولا يعجبنك ما بطن من مساويك، ولتكن معرفتك (٥٨: أ) بغيب نفسك، اوفق عندك من مدح أبناء جنسك. وانقبض عن العامة ومن يلابسها، وامتنع من التكبر بمن يجانسها، ففي طباعها اهانة المتلبس بأشياعها، وانقص من اتصل برعاعها.

وأعلم، بأن إحسانك للحر تحركه على المكافأة المختلفة، وإحسانك إلى الوغد يحمله على معاودة المسألة، فضع إحسانك ولسانك حيث وضعها الرأى الصريح، والاختيار الصحيح.

هذه - أرشدك الله - "نقطة من يم، وتأفه من جم" [2]وحصاة من كبير، وقليل من كثير. والنبيل من قاس الشيء بنظيره، واستدل على الكبير بيسيره. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) تهبيب العمل، إفساده.

(٢) ما بين علامتى التنصيص اسم رسالة للمؤلف، تناولت مختارات من إنتاج أستاذه رئيس ديوان الإنشاء المعاصر الشيخ أبو الحسن على بن الجياب (٦٧٣هـ - ١٢٧٣م) - ٧٤٩هـ - ١٣٤٩م) فى دولة السلطان يوسف الأول ابن الأحمر (٧٣٣هـ - ١٣٣٣م - ٧٥٥هـ - ١٣٥٥)م.

الركن الثانى

فما يستشعره الوزير مع الملك
ليامن عادية الأمر المرتبك

وإذا خدمت ملكاً زاد رأيك على رأيه، وفضل سعيك في التدبير حسن سعيه - فأره الاستهانة بمزيدك، واقصر من أشراف جيدك، واظهر التعجب مما فضل عليك به، وسر من الحزم على مذهبه، ولا تتبجج بتجاوز ما لأهل طبقتك، وإذا أنفقت عند الكفاية (٥٨ : ب) فاقتصد في نفقتك، فإنه لا يحسن منه موقع قولك أو عملك، ويرى أن تغررك به أكثر من تحملك، فيشرع في كسره، وجرك إلى قسره [١].

وإذا تعارض عندك العجز في مروءتك وديانتك، وكفايتك وأمانتك، فتنزه الكفاية عنده عما يشين، وأرض بالنقص في المروءة لا في الدين، فهو عليه أسهل، وفرق ما بين الحالين لا يجهل. وإياك أن يأنس منك فيهما إخلالا، أو يرى منك لهما إهمالا. وأحذر الأضرار لديه بالناس في سبيل النصيحة، أو التغير عليه كما توفر العامة على أنفسها الشحيحة. وأبتع له قلوب الخلق، بمسامحتهم فيما قصروا له فيه عن سير الحق،فانك تسترخص له بذلك تملك الأحرار، وتحسين الآثار. واترك لشؤونه الخاصة وشؤونك. وحرك من أحسنت إليه على شكره دونك، ليقف على أن سعيك لا لنفسك، في يومك وأمسك، ولا حظ لك فيما تمسك.

وإياك أن تحيا بمثل تحيته، أو تلقى مثل ما يلقى به عند رؤيته. أو ترفع بالسلام (٥٩ : أ) عليه الأصوات، أو يسبق الناس بابك قبل باب الملك بالغدوات، فكم جلب ذلك من الآفات، وغير من الصفات، وإذا دعاك إلى لهوه أو شرابه، وخصك بمزيد اقترابه - فليكن الأعظام على الالتذاذ غالبا، والفكر للحذر مراقبا، واجعل التحرز منه في أوقات انبساطه إليك واجبا. ولا تستهن من ذلك ما ليس بهين، وإياك أن تلم بك أسرة وجه أو نظره عين. واجتنب لباس ثوبه، وركوب مركبه، واستخدام جميع ما يتزين به، فمن

---

(١) قسره: قهره.

خدم السلطان ـ لنباهة الذكر ولباس العزة– لم يضره تقصير الرياش وقعود البزة. ون صحبه ألذة والترف، مسلوب الشرف.

فصـــل

وإذا خصك بمشورته، وطلب رأيك لضرورته — فلا تخاطبه مخاطبة المرشد لمن استهداه، وأره حاجتك لما ابداه. وإذا اعترف بخطأ يواقعه في بعض أنظاره، أو أعلن بسوء اختياره — فأجل فكرك في التماس أعذاره وتوجيه عاره. واحتل بفطنتك في رماه، (٥٠:ب) وأحذر بان توافقه على ذمه. وذلل نيتك كلامك، واصرف إلى ترك التجاوز كل اهتمامك، فالكلام إذا طابق نية المتكلم حرك نية السامع، وإذا صدر عن القلب أخذ من القلب المجامع. وإذا توجه إليك عتبه لشبهه في أمرك عرضت، أو ظنه تعرضت — فلا تقبل رضاه عنك تمويها، ما لم تقم حجتك فيها. ولا تسام إلا لاحة، وأره أنك لا تؤثر الحياة دون براءة الساحة، حتى ترتفع الظنة رأسا، ولا تحسن من تبعة الأحنة بأسا، ويكون ذلك شاهراً عنده بفضلك، وزائداً له في محلك. ولن إذا غضب، وأق الكريهة دونه أن رهب، واصرف لحظك عنه أن أكل أو شرب. وسد بينك وبينه باب العتاب، بالمشافهة أو الكتاب، ولا تخفف من طاعة الملك إلا لما وافق طاعة ربه، يضع الله تجلتك في قلبه.

وأذكر قول الوزير المتقدم الذكر، وقد أمره الملك المسلط بقتل رجل، وتلطف في سؤله عن ذنبه، بما جر عظيم إنكاره، وفظيع عتبه.

أيها الملك (٦٠:أ) السعيد: لو كنت مالكي وحدك، لأنفذت ـ من غير مسألة ـ أمرك، وشرحت ـ بالامتثال ـ صدرك، ولكنك تملك ظاهري وحده ولي من يملكه وما بعده. وإذا أنفذت عهدك نكثت عهده، وإذا خرجت من يدك دخلت في يده، التي لا تمنع، فكيف تصنع، وله الأمر اجمع!!؟ وأنا لك في طاعته من شرك نعلك أطوع. بكى الملك الجاهل لصدق حجته، وحمل الرجلين من العفو على أوضح محجته.

وهذا القدر كافي لأولي الألباب.. من هذا اللباب.

الـــركن الثالـث

فيما يحذره من تقدم الملك عليه فى الأمر الذى اسنده إليه وجعل زمانه فى يديه

وأعلم، أن من العار بارتباضك[1] ، وسداد أغراضك - ان يتقدمك الملك بخلق هى أولى بك. وأدخل فى حسابك من الصبر على الملاهى، والانقياد للأوامر الدينية والنواهى. وهجر الدعة فى الضيق والسعة، وشدة اليقظة، والذكر الذى تعنى به الحفظة، ومن ذكر إقطاع، أو مقدار ارتفاع، أو اسم مرتزق، أو حصر عمل مفترق، أو التفكر فى مصلحة الملكة، فأنه أن راض ذلك دونك وعلكه، ونهجه (٦٠:ب) منفرداً أو سلكه وتميز فيه بالملكة، وسامحك فى التقصير، وإباع القصير، وسره سبقه أياك، وتقدمه عليك فيما ولاك - فهو مما يحط لديه أمرك، ويوهن قدرك، وأن كان قد غرك. يرى أنه لا موازر له فيما تهابه، ولا كافا فيما عرا بابه، وأمل منابه. واجتهد أن يراك شديد الحرص، أنفا من النقص. ولا يحس منك فى وظيفتك بتقصير، ولا يشعر منك فيه ولو بيسير.

فصل

واحذر أن تسول لك قوة الأمكان، ودالة السلطان - الزيادة فى الاستكثار، من الضياع والعقار، والجواهر النفيسة والاحجار، وغير ذلك من الاحتجاز والاحتكار، وما تدعو إليه جلالة المحل ونباهة المقدار، فينقسم فكرك وشغلك، ويضيع سعيك وفضلك، ويحصية عليك من يضمن[2] لك الافتراس، ولا يمكنك - من كيده الاحتراس، ممن حرم حظه، لوكس معناه أو لفظه[3] ، أو متطلع إلى أوفى من ميزانه، متسام إلى ما وراء إمكانه،

---

(١) الارتباض: الثبات.

(٢) هكذا فى الأصل، فلعلها، يضمر، وهو أولى للسياق.

(٣) التعبير كناية عن القصور فى بلوغ الأمل.

اقصرت به السياسة عن شأنه، فأضرم الحسد ناره، وأذكى أواره، وأعظم صغيرك وآثاره (٦١:أ) وتشوف إلى مناهضتك من كان عنها مقصراً، ويجهر من كان منسترا ويستدعى الارتياب بما جلبه الحظ إليك، والاستظهار به عليك، وطمع الحاسد فيما لديك.

واختر مع الملك البلغة التى تقيمك، وتوسدك مهاد العافية وتنميك، وترفع كلك، وتشمل أهلك، حتى يعلم أنك بقليل ما يجريه لك العدل لديه، أغنى منه بالكثير الذى فى يديه. واجتنب الانهماك فى الاستكثار من الولد والحشد أولى العدد، والأذيال التى تنبت فى أقطار البلد، فإن الحاسد يراهم بذخا ونعمة، وإنما هم مؤونة ونقمة، وداعية إلى استهلاك عتاد، أو تدمير مستفاد، وأثاره حساد. لهم ورد جاهك وعليك صرره[1] . ولهم نفع كدحك وعليك ضرره. والاقتصاد فى أمرك أدوم لسلامتك. وارفع لملامتك، واغض لطرف حاسدك، وأصدق لفوائدك. وأروح لقلبك، واخلص فيما بينك وبين ربك.

وفيما عثرت عليه من التجارب، ووضحت منه المذاهب ـ أن المتقفل من الوزراء طويل عمره، ناجح أمره، مظفر (٦١:ب) بأعدائه واضداده، قريب من الحال المرضية فى معاده.

ولتكن همتك مصروفة إلى استبراء حال المملكة واعتبارها، وتكامل أقطارها، وما عليه كل جزء من أجزائها من سداد ثغراتها، ودفاع أعدائها، ونقصان ارتفاعها، واختلال أوضاعها، أو تدير مصلحة يبقى لك ذكرها وخبرها، ويحسن بك أثرها، وخف مصارع الدالة، فهى ادواء دوائك، وأكبر أعدائك.

واعلم، ، أن الاقتصاد ـ مع إمكان التوسعة، والتنزل مع الرتبة المرتفعة ـ ينبىء عن قوة رأيك، وصحة عزمك، واستقامة سعيك، والرغبة فى الترف، والميل إلى الصرف ـ دالة على غلبة الهوى على الشرف، وأجل ما جملت به زمانك، ورفعت شأنك ـ خدمة الشريعة، وإحياء رسومها، وقمع البدع وإزالة شؤمها، يدع لك الحمد وينخلد المجد. وتول ذلك — متى أمكنك بنفسك، ولا تكله لغيرك من أبناء جنسك. حتى إذا وقفت على

---

(١) الصرر: أراد بها الشدائد، وأحدها صرة، بفتح الصاد.

غمـيرة[1] يجـب تغـييرها، ويـتعين نكيرهـا ـ فارفـع إلى الملـك عينـها، وقبح عند (٦٢:أ) شـينها، ثـم حـل بيـنه وبينـها، واظهر للناس أن قلقه أهمك منـها أكثر من قلقك، وخلقه فى إنكارها متقدمة لخلقك، تهد بذلك إليه ما يزيد فى مكانتك، ويغبط بأمانتك، ويشهر موازرتك واعانتك. وحسبنا الله. ونعم الوكيل.

(١) الغميرة فى الأصل ـــ مجمع الماء الكثير، والتعبير هنا على سبيل الكناية.

الـــــركن الرابـــــع

في تصنيف أخلاق الملوك
للسير بمقتضاها والسلوك

وأعلم أن للملوك أخلاقا يضطر الملاطف من خدامها إلى استعمالها، فيجعلها أساساً للسياسة وأحكامها، وهي أن الملك لا يخلو لمن يكون سخياً وباذلاً، أو ممسكاً باخلاً، قوياً على تدبيره، أو ضعيفاً يلقى المقادة لوزيره، أو سيئاً ظنه، أو ممن الاسترسال فنه. أو حسن البشر عند الافتراض، أو منقبضاً عند الأغراض. وإذا تركبت هذه الخلال تركيباً طبيعياً، وترتبت ترتيباً وضعياً، وتقابل امتزاجها، بلغ - إلى ستة عشر - ازدواجها، وتأنى للحكيم من الوزراء - علاجها، وربما انحرفت هذه الخلق أو توسطت، وربما أفرطت في (٦٢:ب) هذا الترتيب وارتبطت.

فإن كان سخياً آثر درر الشكر على توفير نوافل المثال، وكلف بحسن الذكر في جميع الأحوال، وأن كان بخيلاً فبضد هذه الحال. وأن غلبت عليه قوة التدبير استدعاك إلى المشاركة في سعيك، وأحرز عليك بذلك الحجة في رأيك، وأن غلب عليه الضعف ركن إلى تدبيرك، وفوض إليك الأمر في قليلك وكثيرك، وخلاك وما لا يحمد من عواقب أمورك. وأن كان حسن الظن تمكنت من أحكام تدبيرك لدولته، وبلغت منها أقاصي مصلحته. وأن كان سيء الظن شغلك عن الإخلاص، يطلب الخلاص، وبإحراز الحجة عليه، عن التفرغ لكثير ما يحتاج إليه. وأن كان البشر عليه غالبا، كان لنشاطك جالبا.

فاجعل هذه الأخلاق أصولا، ورعيك لها موصولاً، وصاحبه على خلقه وعقله، وانقل منها بالتلطف ما قدرت على نقله. وأعط صورة من تخدمه ما يناسب تكاليفها، ويرفع تكليفها، وانفق ما (٦٣:أ) ينفق عندها، واجتنب ضدها يحسن أثرك، ويعظم شأنك، وينقد - لك - سلطانك.

الـــركن الخـــامس

في سيرته مع من يتطلع لهضبته
ويحسده على رتبته

وأعلم أنه قلما يخلو من حل محلك ـ من علو القدر، وعزة الأمر ـ عن قرين يعانده، أو حاسد يكايده، أو متطلع يمت إلى الملك بقربى، أو محل قاف فى اللطافة واربى. يتوهم أن وسيلته تبلغه ما يتطاول إليه من منزلتك، وتلبسه تجلتك، أو ذى همة جامحة، ولا عنان الشرف طامحة، يرى أن حظه منحوساً، وأن مثله لا يكون مرؤوسا. وآخر رآك مقترا فيما آثرت فيه. رضى من حكم بفضلك، وحسن الإبقاء فى الملكة بعدلك. واحتفل لمدافعة حسن موقعك، وجلالة محلك. فظن تراخيك لإخلال فى التدبير، واساءة فى التقدير، وكلهم ينظر إلى الملك ومن أصغر جوانبه، ويخفى عنه أكثر مما يظهر من مذاهبه. ولطف المحل، والتقدم فى العلم والفضل ـ وأن كان يغير من حل محلك، وناهضك فضلك ـ ليس (٦٣: ب) من الاضطرار أن يكون لمنزلته أسبابا، ولا لطلبته أبوابا.

والحق أن تجاهد هذه الجماعة، وتقمع منها النفس الطماعة، بالزيادة فى فضائلك الدانية، والمناصحة لمن خصك المزية، ولا تكشف فى المجادة وجها، ولا تبد فيهم غيبة ولا نجها[1] واكسر سورة حسدهم بإحسانك، وسوغهم بالمعروف من وجهك ولسانك. واصطنع اضدادهم ممن ضلع عليهم، ومثل لديهم، تحرس غيبك، وتدافع عيبك، وتجلو ريبك، من غير أن يحسن منك لهذا الغرض بفاقة، ولا يشعر بإضافة، فإنك تنشر نيتهم المطوية، وترميهم من أشكالهم بالبلية، ثم تتلقى بعد ذلك فوارطهم بحسن الإقالة، وتتغمد سقطاتهم بالجلالة. وتكرم بكرم العفو على سوءاتهم السوالف، وتخليهم وما بقلوبهم من الحسايف[2] . فإن تسلط الجاهل على نفسه فيما قصر عنه من عدل، أو

---

(١) تقدمت الإشارة إليها بمعنى النجوى.

(٢) الحسايف — واحدة الحسيفة بمعنى العداوة والغيظ، يقولون "رجع بحسيفة نفسه" أى رجع و لم يقض حاجة نفسه. وفعله حسف بفتح فكسر، بمعنى اضمار العداوة والغضب.

اخطأ نيله من فضل، أعز على حوبائه[1] من ظفر بأعدائه. ولا تركن إلى مزورته، ولا لمن حركت جسده وأثرته.

وخذ حاشيتك (٦٤:أ) بترك التعالى، والتطامن لذوى الشرف العالى، والأقصار من المطامع، وأدلتك فى المسامع، ولتتخذ العدل فى الناس إلى الفضل، والبشر إلى البذل، والقول الصالح إلى الفعل، واختر من تصطنعه لخدمتك. وتنصبه مظهرا لنعمتك، بتنبيهه إلى ما شرط فى الاختيار فى رتبتك. فإن إحسان الصنيعة يرد عنك سوء الإقالة، وقبح الأدالة، ويصون عرضك من الادالة.

---

(١) الحوباء – قيل هى مأخوذة من الحوبة بمعنى الحاجة.

الــــركن الســـادس

فيما تساس به الخاصة والبطانة
وذوو الدالة والمكانة

وأعلم أن من الخاصة مريضاً لشدائد الدولة، ومهتما بها، ومتسما من ألقاب العناء فيها — بإكرم سماتها. فهو يرى لنفسه اليد اليوم والغد، وآخر متعلق بقرابة من الملك وحرمه، أو وكيد[1] ميل وذمة. وليست حظوظهم من الملك على حسب قوة اسبابهم، ووزن ما فى حسابهم. فإن أطعت فيهم الملك ظلمت المملكة حقها، وأن عدلت خالفت موافقة الملك وباينت طرقها. والصواب التمسك بالترتيب على الإطلاق (٦٤: ب) ووضع الناس من المملكة موضع الاستحقاق، واستمل إرضاء الملك، فى تفضيل من آثره بحسن العطية، وباين بين أصناف الشفوف[2] وأنواع المزية.

وأعلم أن ميل الأعلام إلى رفعة المنزلة أعظم منها إلى الصلة. وراع مر الجماعة، فتمم ما وقع بالمستحق من التقصير بكرم المواعد وإلقاء المعاذير، وأصلح قلوبهم للملك بكل ما يتكفل بجبر الكسير، واجذبها إلى طاعته بحسن أوصافك، وصحة رأيك فى القليل والكثير، وانحله فضائلك من غير شوب بالمن ولا تكدير، تصف لك سريرة صدره، ويأتمنك على جميع أمره.

وأحذر انصباب القوم عليك، واخلالها بمراكزها من داره، وانصرافها إليك والتحامها بك، وتمسكها دون الملك باسبابك، اعتماداً على نصرة جنابك وقيامك بأمرها وحسن

---

(١) الوكيد والأكيد — الدقيق الثابت والشديد. وأفعل التفضل منه.. أوكد وآكد.

(٢) الشفوف — الثياب الرقيقة، واحدها — شف بكسر الشين وفتحها قال الشاعر:

ولبس عباءة وتقر عينى ... أحب إلى من لبس الشفوف

والتعبير لدى المؤلف على سبيل المجاز، والقصد تحرى الصواب فى التفرقة بين مختلف الطبقات.

منابك. وخف وضعا منها، وأياك من قلوبها وعيونها وكافة شؤونها، بحيث لا يؤثر الملك رضاه، ولا يحمد مقتضاه. فربما زرع لك فى قلبك سوء الطوية، وأثبت لك الحقد (٦٥:أ) وخبث النية. وخبأ لك ـ وأنت لا تعلم ـ أعظم البلية.

ولتمكن من النفوس أن رضاك برضاه معقود، وأنك لا تعمل إلا ما رآه، ولا تؤثر إلا ما أرتضاه، وأن لك عنده منزلة محدودة، ودرجة معدودة من ذادك عنها ظلمك، وجلب ألمك. وأن فى قبولك لها وايثارك، ما يزرى على فضل اختيارك.

وعامل الملك في ولده لحفظ الغيب، والسلامة من الريب، واحفظ له الرحم واستبقه، واجعل حقهم دون حقه. وإذا دعوت لهم فاشترط العمادة بخدمته وطاعته، وأجعل رضاه من الولد رأس بضاعته، وأحذر من أعمال هذا الغرض وإضاعته. وإياك أن يفضل ولدك ولده، ولا عدتك عدده، ولا تنافسه فى شيء قصده، ولا تظهر حاشيتك على حاشيته، ولا تتشبه غاشيتك بغاشيته. ولا تنازعه تجلته، ولا تعمر مزلته[1] ولا تحل محله من جيشه، ولا تغر عليه فى نباهة بنائه وفضل عشه. وتفقد نفسك فانزل على الرقا[2] اختياراً، قبل أن ينزلك اضطراراً.

فصل

وإذا انصرفت (٦٥:ب) إليك من إحدى خدمه رغبة، أو تأكدت فى مهم قربه، أو بدرت إليك شفاعة، أو توجهت فى حاجة طماعة — فلا تسمع رسالتها، ولا تعتبر مقائتها، إلى من لسان إنسان، موصوف عند الملك بإحسان، حال من ثقته بمكان. واحترز فى محاولتها من فلتات اللسان وهفواته، وراجع خطابها مراجعة الأخ الأكرم أخواته، أو

---

(١) المزلة — موضع الزلل.

(٢) الرقا — بتشديد الراء وسكون القاف، الصعود من قولهم "لا أرقا الله دمعته" بمعنى — لا رفع الله دمعته. والمرقاة، بكسر الميم أو فتحها — الدرجة يرقأ إليها.

الابـن الأبـر أمهاتـه. ولا تنصع فى مخاطبتها إلى خضوع كلام، ورقة تحية وسلام، وانفر من ذلك نفرتك من السموم الوصية[1] المهلكة الردية.

وأسدل دون الولد والحرم جناح التقية. واكتم سره عن أبناء جنسك، وبل عن نفسك، واجعـل قلـبك لـه قبراً، وأوسعه ضنانة وصبراً. فإن تزاحم عليك تزاحما تخاف منه معرة النسـيان، وإغفـال دهـرها عـن الاحـيان ـ فاتخـذ لها رمزاً يفرك بعلمها، ولا تبح لسواك شـيئا مـن حكمهـا. ولا تغفـل من الاحيان ما جرى به رسمك من عرض كتاب بوافد، أو خير رافد، أو بريد قاصد، وأستأمره فيما جرت به العوائد.

وان (٦٦:أ) خصـت لديـة منزلتك، ولطفت منه محلتك- فلا تترك أن تمرر ذلك على سمعـه، مغتنـما لوعـية، وأذقه حلاوة الاستبداد بأمره ونهيه. واترك له منفذا يحتاج إليه بابـه عند مغيبك، لما عينه العدل من نصيبك. ولازم شدته مع الأحيان. وأياك أن تجتمع معـه علـى فـراغ، فيبقـى الملك مضيعا بمقدار ذلك الزمان. وإذا انصرفت إلى منزلك فاخل بعمالك وكتابك، وذوى الرأى والنصيحة من أصحابك، على أحكام حال الملك التى ناطها بك. فـإذا أمسيت فاشغل طائفة من ليلك بمدارسة شىء من حكم الدين، وأخبار الفضلاء المهـتدين، وأجـل صـدأ نفسـك بالـبراهين، ومجالسـة العلمـاء والصالحين. واختم سعيك ببعض صحف السنين، وأدعية المرسلين والمتألهين[2] .

لتخـتم يـومك بالطهـارة والعفة، والحلم والرأفة، واعتدال الكفة، وليهن عليك النصب والوصب، والعمر المعتصب.

إنك مهتد بهدى ربك الذى يرعاك، وينجح مسعاك، ويثبت على ما إليه دعاك.

---

(١) الوصـــية بتشديد الصاد بمعنى السريعة، يقال "موت وصى" أى سريع، ويقال: القتل بالسيف وصى، أو أسرع.

(٢) يقصد المتنسكين، ممن طارت لهم شهرة فى هذا الميدان.

قـال: فلما استوفى النمر مقاله، واحرز الشبل سؤاله، وقر حاله - انصرف مبتهجا إلى خدمته، وصرف النمر - إلى العبادة - وجه همته. ثم لحق - بعد ذلك - بجوار ربه ورحمته.

وقـيد الحاكى ما أفادته هذه المحاولة، لتلفى رسما يقتفى، وعلما يهتدى به إذا ذهب الأثر وعفا.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

مخطـوط
مقامــة السياسة

مقامة السياسة

ومن ذلك ما صدر عنى فى "السياسة" وكان إملاؤها فى ليلة واحدة، حديث من امتاز باعتبار الأخبار، وحاز درجة الاشتهار ومعاقل حوادث الليل والنهار، وولج بين الكمائم والأزهار، وتلطف لخجل الورد من تبسم البهار(1) ، قال:

سهر الرشيد ليلة، وقد مال فى هجر النبيذ ميله، وجهد ندماؤه فى جب راحته، والمام النوم بساحته، فشحت عهودهم(2)، ولم يغن اجتهادهم، فقال، اذهبوا إلى طرق سماها ورسمها، وأمهات قسمها، فمن عثر عليه من طارق ليل، أو غثاء سيل، أو ساحب ذيل، فبلغوه، والامنة(3) سوغوه واستدعوه، ولا تدعوه، فطاروا عجالاً، وتفرقوا ركبانا ورجالا، فلم يكن إلا ارتداد طرف أو فوارق حرف، وأتوا بالغنيمة التى اكتسبوها، والبضاعة التى ربحوها، يتوسطهم الأشعب الأغبر، واللج الذى لا يعبر، شيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة، سبلته مشطة، وعلى أنفه من القبح مطه، وعليه ثوب مرقوع، (لطير الحرق) (4) عليه وقوع، يهيم بذكر مسموع، وينبىء عن وقت مجموع، فلما مثل سلم، وما نبس(5) بعدها ولا تكلم، فأشار إليه الملك فقعد، بعد أن تشمر وابتعد، وجلس فما استرق النظر ولا اختلس، وإنما حركه فكره، معقودة بزمام ذكره، لحظات اعتباره، فى تفاصيل أخباره، فابتدره الرشيد سائلا، وانحرف إليه مائلا، قال: بلدك وأهلك

---

(1) وردت فى نسخة: ك ، "النهار".

(2) فى ك "عهادهم"، وربما كانت هنا لصوب.

(3) هذا ما ورد فى ك، وفى "س".

(4) هذا فى ك وفى س.

(5) فى ك : وما "انبس".

وولدك؟ قال: أما الولد فولد اليوان، وأما البلد فمدينة الايوان، قال: النحلة، وما أعملت إليه الرحلة؟ قال: (أما النحلة فالأمر الكبار، وأما الرحلة فالاعتبار)[1] ، قال: فنك الذى اشتمل عليه دنك؟ فقال: الحكمة فنى الذى جعلته اثيراً، واضجعت منه فراشاً وثيراً، وسبحان الذى يقول: "ومن يؤت الحكمة، فقد أوتى خيراً كثيرا" [2]، وما سوى ذلك فتبع، ولى فيها مصطاف ومرتبع.

قال: فتعاضد جذل الرشيد وتوفر، كأنما أفشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر، وقال: ما رأيت كالليلة اجمع لامل شارد، وانعم بمؤانسة وارد. يا هذا، أنى سائلك، ولن تخيب بعد رسائلك، ما عندك فى هذا الأمر الذى بلينا بحمل أعبائه، ومنينا بمراوضة أبائه؟ فقال: هذا الأمر قلادة ثقيلة ومن خطة العجز مستقيلة، ومفتقرة[3] لسعة الذرع، وربط السياسة المدنية بالشرع، يفسده الحلم[4] فى غير محله، (ويكون ذريعة إلى حله) [5]، ويصلحه مقابلة الشكل بشكله، ومن لم يكن سبعا آكلا، تداعت السباع إلى أكله، فقال الملك: أجملت ففصل، وبريت فنصل، وكلت فوصل، وانثر الحب لمن يحوصل، وقسم السياسية فنونا، واجعل لكل لقب قانونا، وابدا بالرعية، وشروطها المرعية.

" الرعية"

فقال: الرعية رعيتك، وودائع الله تعالى قبلك، ومرآة العدل الذى عليه جبلك، ولا تصل إلى ضبطهم إلا (بأمانة الله تعالى)[6] التى وهب لك، وأفضل ما استدعيت به عونه فيهم، وكافيته التى تكفيهم، وتقويم نفسك عند قصد تقويمهم، ورضاك بالسهر

---

(١) فى د "أما الرحلة فالاعتبار، وأما النحلة فالأمر الكبار".

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ البقرة: ٢٦٩.

(٣) هذا ما ورد فى ك وفى س : مفترقة.

(٤) وفى ط : الحكم.

(٥) الزيادة فى ك.

(٦) الزيادة فى د، وفى س: الأمانة.

لتنويمهم، (وحراسة كهلهم ورضيعهم، والترفع عن تضييعهم[1]، وأخذ كل طبقة بما عليها ومالها، (أخذا يحوط مالها، ويحفظ عليها كمالها)[2] ، ويقصر عن غير الواجب أمالها، حتّى تستشعر عليتها رأفتك وحنامك، وتعرف أوساطها فى النصب امتنانك، وتحذر سفلتها سنانك، وحظر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها، وسد فيها سبل الذريعة، واقصر جمعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة، وامنع أعيانها[3] من (البطر)[4]، والبطالة، والنظر فى شبهات الدين بالتمشدق والاطالة، وليقل فيما شجر بين الناس كلامها ويرفض مما تنجز به أعلامها، فإن ذلك يسقط الحقوق، ويرتب العقوق، وامنعهم من فحش الحرص والشره، وتعاهدهم بالمواعظ التى تجلو البصائر من المره، واحملهم من الاجتهاد فى العمارة على احسن المذاهب، وانههم عن التحاسد على المذاهب، ورضهم على الإنفاق بقدر الحال، والتعزى عن الفائت فرده من المحال. وحظر [5] البخل على أهل اليسار، والسخاء على أولى الأعسار. وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر، وامنعهم عن تأويلها منع القاهر، ولا تطلق لهم التجمع على ما أنكروا أمره فى نواديهم، وكف عن أكف تعديهم، ولا تبح لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم، ولتكن غايتهم فيما توجهت إليه ابايتهم، ونكصت عن الموافقة عليه رأيتهم، وإنهاءه إلى من وكلته بمصالحهم من ثقاتك، المحافظين على أوقاتك، وقدم منهم من أمنت عليهم مكره، وحمدت على الإنصاف شكره، ومن كثر حياؤه من التأنيب، وقابل الهفوه باستنابة المنيب، ومن لا يتخطى عن محله الذى حله، فربما عمد إلى المبرم فحله. وحسن النية لهم بجهد الاستطاعة، واغتفر المكاره فى جنب حسن الطاعة، وإن ثار جرادهم [6] واختلف فى طاعتك مرادهم، فتحصن لثورتهم، وأثبت لفورتهم، فإذا سئلوا وسلوا، وتفرقوا وانسلوا، فاحتقر كثرتهم، ولا تقل عثرتهم، واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا، ولا تترك لهم على حلمك اتكالا.

---

(١) الزيادة فى د.
(٢) فى س : اخذ يحوط كمالها.
(٣) فى ك: اغنياءها.
(٤) واردة فى ك، وساقطة فى س.
(٥) فى د : وحدد.
(٦) هذا فى س، وفى ك : جوادهم.

"الــوزيــر"

ثم قال: الوزير الصالح أفضل عددك، وأوصل مددك، فهو الذى يصونك عن الابتذال، ومباشرة الانـذال، ويـثب لك على الفرصة، وينوب فى تجرع الغصة، واستجلاء القصة، ويستحضر ما نسيته من أمورك، ويغلب فيه الرأيى بموافقه مأمورك، ولا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه حتى يستوفيه، وأحذر مصادمة تياره، والتجوز فى اختياره، وقدم استخاره الله تعـالى فـى إيثاره، وأرسل عيون الملاحظة فى آثاره. وليكن معروفاً بإخلاص تدولتك، معقـود الرضـاء والغضـب برضـاك وصـولتك، زاهـدا عمـا فـى يديك، مؤثراً لكل ما يزلُف لـديك، بعـيد الهمـة، راعـياً للاذمـة، كامل الألة، محيطا بالأيالة، رحب الصدر، رفيع القـدر، معـروف البيت، نبيه الحى والميت، مؤثراً للعدل والإصلاح، دربا بحمل السلاح. ذا خـبرة بـدخل الملكـة وخرجـها، وظهرها وسرحـها، صحيح العقد، متحرزاً من النقد، جـاداً عـند لهـوك، متـيقظا فـى حـال سـهوك، يلـين عـند غضـبك، ويصل الإسهاب[1] بمقتضبك، قلقا من شكره دونك وحمده، ناسباً لك الإصابة بعمده.

وإن أعـيا وجـود أكثـر هذه الخلال، وسبق إلى نقضها شيء من الاختلال، فاطلب منه سـكون الـنفس وهدوئها، وأن لا يرى منك رتبة إلا رأى[2] قدره دونها. وتقوى الله تفضل شرف الانتساب، وهى للفضائل فذلكه الحساب، وساو فى حفظ عيبه بين قربه ونايه، واجعـل حظـه من نعمتك موازيا لحظك من حسن رأيه، واجتنب منهم من يرى فى نفسه إلى الملـك سبيلاً، أو يقود من عصبه لاستظهار عليك قبيلا، أو من كاثر مالك ماله، أو من تقـدم لعـدوك استعماله، أو من سمت لسواك أماله، أو من يعظم [3]عليه أعراض وجهك، ويهمه نادر نهجك، أو من يداخل غير أحبابك، أو من ينافس أحداً ببابك.

---

(١) هذا فى د وفى س : الأسباب، ولعله أصوب.

(٢) هذا فى ك، وفى س: يرى، ولعله ارجح.

(٣) هذا فى د . وفى س : يعرض.

" الجند"

(وأما الجند) فاصرف التقديم[1] منهم للمقاتلة والمكايد والمخاتلة، واستوف عليهم شرائط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، وما أوجبت لهم من الجراية والنعمة، وتعاهدهم عند الغناء بالعلفة والطعمة، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه، وطاب فى الذب عن ملتك ثناؤه، وول عليهم النبهاء من خيارهم، واجتهد فى صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم، ولا توطئهم الدعة مهادا، وقدمهم حصصك وبعوثك متى[2] أردت اجتهادا، ولا تلن لهم فى إغماض عن حسن طاعتك قيادا، وعودهم حسن المواساة بأنفسهم اعتيادا ولا تسمح لأحد منهم فى إغفال شيء من سلاح استظهاره، او عدة اشتهاره، وليكن ما فضل من شبعهم وريهم مصروفا إلى سلاحهم وزريهم والتزيد فى مراكبهم وغلمانهم، من غير تبطر (لما فى إيمانهم).

وأمنعهم من المستغلات[3] والمتاجر، وما يكسب منه غير المتاجر، وليكن من الغزو اكتسابهم، وعلى المغانم حسابهم، كالجوارح التى تفسد باعتيادها، أن تطعم من غير اصطيادها، وأعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلا أنها لمن يملك قلوبها بالإحسان، وفضل اللسان، ويملك حركاتها بالتقويم، ورتبها بالميزان (القويم) [4]، ومن شتق باشفاقه على أولادها، ويشترى رضا الله تعالى بصبره على طاعته وجلادها، فإذا استشعرت لها هذه الخلال، تقدمتك إلى مواقف التلف، مطيعة دواعى الكلف، واثقة منك بحسن الخلف، واستبق إلى تمييزهم استباقا، وطبقهم طباقا، أعلاها من أملت منه فى المحاربة عنك أخطاراً، وأبعدهم فى مرضاتك مطارا، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزماً ووقاراً واستهانة بالعظائم واحتقارا، وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية

---

(١) هذا فى ك، وفى س: التقويم.

(٢) فى ك مهما.

(٣) فى د : المشغلات.

(٤) الزيادة فى "ك".

جـوارا، إذا أوجدت اختبارا وأشدهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطبارا؛ ومـن بلـى فـى الـذى عن لك احلاء وإمراراً، ولحقه الضر فى معارض الدفاع عنك مرارا، وبعده من كانت محبته لك أزيد من نجدته، وموقع رأيه انفع من موقع صعدته، وبعدهما مـن حسـن انقـياده لأمـرائك واحمـاده لآرائـك، ومن جعل نفسه من الأمر حيث جعلته، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده [1] بما فعله.

وأحـذر مـنهم مـن كـان عند نفسه أكبر من موقعه فى الانتفاع، ولم يستحى من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائدك، وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله، وأظهر الكراهية لحاله.

" العمـــــال "

(وأمـا العمـال) فـأنهم ينبـئون عـن مذهـبك، وحـالهم فـى الغالـب شديدة الشبه بك، فعـرفهم فـى أمانـتك السـعادة، والـزمهم فـى رعيتك العادة، وأنزلهم من كرامتك بحسب مـنازلهم فى الإنصاف، بالعدل والإنصاف وأحلهم من الحفاية، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفايـة، وقفهم عند تقليد الإرجاء، مواقف الخوف والرجاء، وقرر فى نفوسهم أن أعظم مـا بـه إلـيك تقـربوا، وفـيه تدربـوا، وفـى سـبيله أعجموا وأعربوا - إقامة حق، ودحض باطـل، حتـى لا يشـكو غريم مطل ماطل، وهو آثر لديك من كل رباب هاطل، وكفهم من الـرزق الموافـق، عـن التصدى لدنـئ المـرافق، واصـطنع منهم من تيسرت كلفته، وقويت للـرعايا الفته، ومـن زاد علـى تأميله صبره، وأربى على خبره خبره، وكانت رغبته فى حسـن الذكـر، تشـف على غيرها من بنات الفكر، واجتنب منهم من يغلب عليه التخرق فـى الانفـاق، وعـدم الاشـفاق، والتـنافس فـى الاكتسـاب، وسـهل عليه سوء الحساب، وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية، دون التقصى والكفاية، ومن كان منشؤه خاملا، ولاعباء الدناءة حاملا.

---

(١) هذا ما ورد فى د، وفى س: صبره ولعله أرجح.

وابغ من يكون الاعتذار فى أعمائه أوضح من الاعتذار فى أقواله، ولا يفتنك من قلدته اجتلاب الحظ المطمع[1]، والتنفق بالسعى المسمع، ومخالفه السنن المرعية، (واتباعه رضاك بسخط الرعية)[2]، فأنه قد غشك، من حيت بلك ورشك، وجعل من يمينك فى شمالك، حاضر مالك. ولا تضمن عاملا مال عمله، وحل بينه فيه وبين أمله، فأنك تميت رسومك بمحياه، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه. ولا تجمع له بين الأعمال، فيسقط استظهارك ببلد على بلد، والاحتجاج على والد بولد، واحرص على أن يكون فى الولاية غريباً، ومنتقله منك قريبا، ورهينة لا يزال معها مريباً، ولا تقبل مصالحته على شيء اختانه، ولول برغيبة فتانه، فتقبل المصانعة فى أمانتك، وتكون مشاركا له فى خيانتك، ولا تطل مدة العمل، وتعاهد كشف الأمور ممن يرعى الهمل، ويبلغ الأمل.

" الـولــد"

(وأما الولد) فأحسن آدابهم، واجعل الخير دأبهم، وخف عليهم من إشفاقك وحنانك، أكثر من غلظة جنانك، واكتم عنهم ميلك، وأثبتهم على حسن الجواب، وسبق إليهم الخوف الجزاء على رجاء الثواب، وأفض فيهم جودك ونياك، ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلتك، وعلمهم الصبر على الضرائر، والمهلة عند استخفاف الجرائر، وخذهم بحسن السرائر، وحبب إليهم مراس الأمور الصعبة المراس، وحسن الاصطناع والافتراس[3]، والاستكثار من أولى المراتب والعلوم، والسياسات والعلوم، والمقام المعلوم، وكره إليهم مجالسة الملهين، ومصاحبة الساهين، وجاهد أهواءهم عن عقولهم، وأحذر الكذب على مقولهم، ورشحهم إذا آنست منهم رشدا أو هديا، وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثديا، لتمرنهم على الاعتياد، وتحملهم على الازدياد، ورضهم[4] رياضة الجياد،

---

(١) فى د : المقنع.

(٢) هذه الجملة ساقطة فى س، وواردة ف ك.

(٣) فى ك : الاحتراس.

(٤) الامر من راض، والمصدر إذا هجمت.

وأحذر عليهم الشهوات في أدوائهم، وأعداؤك في الحقيقة أعدائهم، وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت، وأقرعها كلما هجمت[١] ، قبل أن يظهر تضعيفا، فإن أعجزتك في صغرهم[٢] الحيل، عظم الميل.

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت... ولن تلين إذا قومتها الخشب.

وإذا قدروا على التدبير، وتشوفوا للمحل الكبير، فأياك أن توطنهم في مكانك (جهد إمكانك)[٣]، وفرقهم في بلدانك، تفريق عبدانك، واستعملهم في بعوث جهادك، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك، فإن حضرتك تشغلهم بالتحاسد، والتبارى والتفاسد، وانظر إليهم بأعين الثقات، فأن عين الثقة تبصر، ما لا تبصر عين المحبة والمبقة[٤].

" الخـــدم"

(وأما الخدم) فإنهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع، وتبصر وتسمع، فرضهم بالصدق والأمانة، وصنهم صون الجمانة، وخذهم بحسن الانقياد إلى ما آثرته، والتقليل مما استكثرته، وأحذر منهم من قويت شهواته، وضاقت عن هواه لهواته، فإن الشهوات تنازعك في استرقاقه، وتشاركك في استحقاقه، وخيرهم من شر ذلك عنه بلطف الحيلة، وآداب الفساد مخيله، واشرب قلوبهم أن الحق في كل ما حاولته واستنزلته، وأن الباطل في كل ما جانبته واعتزلته، وأن من تصفح منهم أمورك فقد أذنب، وباين الأدب وتجنبن وأعط من أكديته، وأضقت منه ملكه وشددته — روحة يشتغل فيها بما يغنيه، على حسب (صعوبة)[٥] ما يعانيه، تغبطهم فيها بمسارحهم، وتجم كيلة جوارحهم. ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذى لا يبطر لآعلامهم، ولا يؤسف (الأصاغر فيفسد)[٦]،

---

(١) فى ك : "وأذعهما إذا هجمت".
(٢) فى ك : الصغر.
(٣) ناقصة فى س، وواردة فى د.
(٤) فى د : والمقة.
(٥) ساقطة فى س ، وواردة فى د.
(٦) ساقطة فى س، وواردة فى د.

أحلامهم، ولا ترم محسنهم بالغاية من إحسانك، واترك لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك، وحذر عليهم مخالفتك ولو في صلاحك بحد سلاحك، وأمنهم من الثواثب والتشاجر، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر.

واستخلص منهم لسرك من قلت في الإفشاء ذنوبه، وكان أصبرهم على ما ينوبه، ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك، أكثر من رغبته في إحسانك، وضبطه لما تقلد من وديعتك، أحب إليه من حسن صنيعك، وللسفارة عنك من حلا الصدق في فمه، وأثره ولو بإخطار دمه، واستوفي لك وعليك فهم ما تحمله، وعني بلفظه حتى لا يهمله، ولمن تودعه أعداء دولتك من كان مقصور الأمل، قليل القول صادق العمل، ومن كانت قسوته زائدة على رحمته، وعظمة في مرضاتك أثر من شحمته، ورأيه في الحذر سديد، وتحرزه من الحيل شديد، ولخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعة، وامتد في حسن السجية باعه، وأمن كيده وغدره، وسلم من الحقد صدره، ورأى المطامع فما طمع، واستثقل اعادة ما سمع، وكان بريئا من الملاك، والبشر عليه أغلب الخلال، ولا تونسهم منك بقبيح فعل ولا قول، ولا تؤسهم من طول، ومكن في نفوسهم أن أقوى شفعائهم، واقرب إلى الإجابة من دعائهم — إصابة الغرض فيما به وكلوا، وعليه شكلوا، فإنك لا تعدم بهم انتفاعا، ولا يعدمون لديك ارتفاعا.

" الحـــــرم "

(وأما الحرم) فهم مغارس الولد، ورياحين الخلد، وراحة القلب الذى اجهدته الافكار، والنفس التى تقسمها الاحماد إلى المساعى والإنكار، فاطلب لهن — من غلب عليهن من حسن الشيم، المترفعة عن القيم — ما لا يسوءك فى خلدك، أن يكون في ولدك. وأحذر أن تجعل لفكر بشر دون بصر إليهن سبيلا، وأنصب دون ذلك عذابا وبيلا، وأرعهن من النساء العجز من بانت فى الديانة والأمانة سبله، وقويت غيرته ونبله، وخذهن بسلامة النيات، والشيم السنيات، وحسن الاسترسال، والخلق السلسال، وأحذر عليهم من التغامز والتغاير، والتنافس والتخاير، وآس بينهن فى الأغراض، والتصامم عن الأعراض والمحاباة بالإعراض، وأقلل من مخالطتهن، فهو أبقى لهمتك، وأسبل لحرمتك، ولتكن عشرتك لهن

عند الكلال والملال، وضيق الاحتمال، بكثرة الأعمال، وعند الغضب والنوم، والفراغ من نصب اليوم، واجعل مبيتك بينهن تنم بركاتك، وتستتر حركاتك، وافصل من ولدت منهن إلى مسكن يختبر به استقلالها، ويعتبر بالتفرد خلالها، ولا تطلق لحرمة شفاعة ولا تدبيرا، ولا تنط بها من الأمر صغيرا ولا كبيرا، وأحذر أن يظهر على خدمهن فى خروجهن عن القصور، وبروزهن من أجمة الأسد الهصور، زى بارع، ولا طيب للأنوف سارع، واخصص بذلك من طعن فى السن، ويئس من الانس، والجن، ومن توفر النزوع إلى الخيرات قبله، وقصر عن جمال الصورة ووسم بالبلة.

ثم لما بلغ إلى هذا الحد، حمى وطيس استجفاره، وختم حزبه باستغفاره. (ثم صمت مليا)[1]، واستعاد كلاما أوليا، ثم قال: واعلم يا أمير المؤمنين ـ سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته، وعصمك من الزمان وآفته ـ أنك فى مجلس الفصل، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل، فى طائفة ـ من عز الله تعالى ـ تذب عنك حماتها، وتدافع عن حوزتك كماتها، فأحذر أن يعدل بك غضبك، عن عدل تزرى منه بضاعة، أو يهجم بك رضاك على إضاعة، ولتكن قدرتك وقفا على الاتصاف، بالعدل والإنصاف، واحكم بالسوية، واجنح بتدبيرك إلى حسن الروية، وخف أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين، أو تستفزك العجلة فى أمر لم يتبين، واطلع الحجة ما توجهت إليك، ولا تحفل بها إذا كانت عليك، فانقيادك إليها أحسن من ظفرك، والحق أجدى من نفرك، ولا تردن النصيحة فى وجه، ولا تقابل عليها بنجه[2]، فتمنعها إذا استدعيتها، وتحجب عنك إذا استوعبتها، ولا تستدعها من غير أهلها، فيشغبك أولا الأغراض بجهلها، واحرص[3] على أن لا ينقضى مجلس جلسته، أو زمن اختلسته، ألا وقد أحرزت فضيلة زائدة، أو وثقت منه فى معادك بفائدة.

---

(١) ساقطة فى س، وواردة فى د.

(٢) السنجه، الرد أقبح الرد، والاستقبال بما يكره، وفعله: نجه ينجه. من باب فعل بفتحات يفعل بسكون ففتح.

(٣) زيادة ربما فضل بها المعنى.

" المـــال "

ولا يـزهدك فـى المـال كثـرته، فـتقل فـى نفسك أثرته، وقس الشاهد بالغائب، واذكر وقـوع مـالا يحتسـب مـن الـنوائب، فالمـال المصـون أمنع (من)[1] الحصون، ومن قل ماله قصـرت آمالـه، وتهـاون بيمنـيه وشماله والملك إذا فقد خزينه أخنى على (أهل)[2] الجدة التـى تـزينه، و(عـاد)[3] علـى رعيـته بالاجحاف، وعلى جبايته بالالحاف، وساء معتاد عيشـه، وصـفر فى عيون جيشه، ومنوا عليه بنصره وانفوا من الاقتصار على قصره، وفى المـال قـوة سماويـة تصـرف الناس لصاحبه، وتربط أمال أهل السلاح به، والمال نعمة الله تعـالى، فـلا تجعلـه ذريعـة إلى خلافه، فتجمع بالشهوات بين اتلافك واتلافه، واستأنس بحسـن جـوارها، واصرف فى حقوق الله تعالى بعض أطوارها، فإن فضل المال عن الآجل فأجـل، ولم يصـر مـا تلـف[4] منه بين يدى الله عز وجل، وما ينفق فى سبيل الشريعة، وسد الذريعة، مأمول خلفه، وما سواه فمتعين تلفه.

" الحاشـــية"

واسـتخلص لـنواديك الغاصـة، ومجالسـك العامـة والخاصـة مـن يلقـى بولـوج عتبها، والعـروج لـرتبها، أمـا العامـة فمـن عظم عند الناس قدره، انشرح بالعلم صدره، أو "طهر يسـاره، وكان لله تعالى اخباته وانكساره، ومن كان للفتيا منتصبا، وبتاج المشورة معتصبا. أمـا الخاصـة فمن رقت طباعة، وامتد فيما يليق بتلك المجالس باعه، ومن تبحر فى سير الحكمـاء، واخـلاق الكـرماء، ومـن لـه فضل سافر، وطبع المدنية متافر، ولديه من كل ما تستتر به الملوك من العوام حظ وافر، وصف البابهم بمحصول خيرك، وسكن قلوبهم بيمن طيرك، واغنهم ما قدرت عن غيرك.

---

(١) هذا فى د. وفى س: وأعمل.

(٢) واردة فى ك، وساقطة فى س.

(٣) واردة فى ك، وساقطة فى س.

(٤) فى د : خلف.

وأعلم بأن مواقع العلماء من ملكك، مواقع المشاعل المتألقة، والمصابيح المتعلقة، وعلى قدر تعهدك[1] تبذل من أضياء، وتجلو بنورها صور الأشياء، وفرعها لتحبير ما يزين مدتك، ويحسن من بعد البلاء جدتك، وبعناية الأواخر عنيت[2] الأول، وإذا محيت المفاخر خربت الدول.

وصايا متفرقات

وأعلم أن بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية فى القاصى منها والدان، فاحرص على ما يوضح فى الدهر سبلك، ويحرز المزية على من قبلك.

وأن خير الملوك من ينطق بالحجة، وهو قادر على القهر، ويبذل الانصاف فى السر والجهر، مع التمكن من المال والظهر، ويسار الرعية جمال للملك وشرف، وفاقتهم من ذلك طرف، فغلب اليق الحالين بمحلك وأولاهما لظعنك وحلك، وأعلم أن كرامة الجور[3] دائرة، وكرامة العدل متكاثره، والغلبة بالخير سيادة، وبالشر هوادة. وأعلم أن حسن القيام بالشريعة، يحسم عنك نكاية الخوارج، ويسمو بك إلى المعارج، فأنها تقصد أنواع الخدع، وتروى بتغير البدع، وأطق على عدوك أيدى الأقوياء من الأكفاء، والسنة اللفيف من الضعفاء، واستشعر عند نكته شعار الوفاء ولتكن ثقتك بالله تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها، وكتيبة تجندها، فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تكتسب، ويمهد لك مع الأوقات نصرا لا يحتسب، والتمس أبدا مسالمة[4] من سالمك، بنفيس ما فى يدك وفضل حاصل يومك على منتظر غدك، فإن أبى وضحت محجتك، وقامت عليه للناس بذلك حجتك، فالنفوس على الباغى[5] ميل، ولها من جانبه نيل، واستهد فى كل يوم سيرة من يناويك، واجتهد أن لا يوازيك فى خير ولا يساويك.

---

(١) فى ك : تعاهدها.

(٢) هذا ما ورد فى س، وفى ك: ذكرت.

(٣) هذا ما ورد فى ك، وفى س: الخوف، وان روعى التطابق كان ما فى المتن هنا أولى.

(٤) فى ك : سلم.

(٥) فى د: الباغين.

وأكذب الخبر ما يشيمه عن مساويك، وتقبل من الإطراء إلا ما كان فيك فضل من اطالته، وجد يزرى على بطالته، ولا تلق المذنب بحميتك وسبك، وأذكر عند حركة الغضب ذنوبك إلى ربك، ولا تنس أن ذنب المذنب أجلسك مجلس الفصل، وجعل فى قبضتك رياش الفضل، وتشاغل فى هدنة الأيام بالاستعداد، واعلم أن التراخى منذر بالاشتداد، ولا تهمل عرض ديوانك، واختبار أعوانك، وتحصين معاقلك وقلاعك، وعم أيالتك بحسن اطلاعك، ولا تشغل زمن الهدنة بلذاتك، فتجنى فى الشدة على ذاتك، ولا تطلق فى دولتك السنة الكهانة والارجاف، ومطاردة الآمال العجاف، فأنه يبعث سوء القول، ويفتح باب العدول، وحذر على المدرسين والمتعلمين والعلماء والمتكلمين، حمل الأحداث على الشكوك الخالجة، والمزلات الوالجة، فإنه يفسد طباعهم، ويغرى سباعهم، ويمد فى مخالفة الملة باعهم، وسد سبيل الشفاعات، فأنها تفسد عليك حسن الاختيار، والنفوس الخيار، وأبذل فى الأسرى من حسن ملكتك، ما يرضى من ملكك رقابها، وقلدك ثوابها وعقابها، وتلق بدء نهارك بذكر الله تعالى فى ترفعك وابتذالك، واختم اليوم بمثل ذلك، وأعلم أنك مع كثرة حجابك، وكافة حجابك، بمنزلة الظاهر للعيون، والمطالب بالديون، لشدة البحث عن أمورك، وتعرف السر الخفى بين أمرك ومأمورك، فأعمل فى سرك ما لا يستقبح أن يكون ظاهرا، ولا تستأنف أن تكون به مجاهرا، واحكم بريك فى الله ونحتك، وخف من فوقك يخفك من تحتك، وأعلم أن عدوك من اتباعك من تناسيت حسن قرضه، أو زادت مؤنته على نصيبه منك وفرضه، فأصمت للحجج، وتوق اللجج، واسترب بالامل، ولا يحملتك انتظام الأمور على الاستهانة بالعمل، ولا تحقرن صغير الفساد، فيأخذ على الاستئساد، واحبس الألسنة عن التخالى باغتيابك، والتشبث بأذيال ثيابك، فإن سوء الطاعة، ينتقل من الأعين الباصرة (إلى الألسن القاصرة)[1] ، ثم إلى الأيدى المتناصرة، ولا تثق بنفسك فى قتال عدو ناواك، حتى تظفر بعدو غضبك وهواك، وليكن خوفك من سوء تدبيرك، أكثر من عدوك الساعى فى تثبيرك، وإذا استنزلت ناجما، أو أمنت ثائراً هاجماً، فلا تقلده البلد الذى

(١) ساقطة فى س، وواردة فى د.

فيه نجم، وهمى عارضه وانسجم، يعظم عليك القدح فى اختيارك، والغض بأكبر إيثارك، واحترز من كيده فى جوارك[1] ومأمك، فأنك أكبر همه، وليس بأكبر همك، وجمل الملكة بتأمين الفلوات، وتسهيل الأقوات، وتجويد [2]ما يتعامل من الصرف فى البياعات، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات، ولا تبخس عيار قيم البضاعات.

ولتكن يدك على أموال الناس محجوره، وفى اخترامها ـ إلا عن الثلاثة ـ مأجورة. مال من عدا طوره طور أهله، وتخارق فى الملابس والزينة، وفضول المدينة، بروح معارضتك بحمله، ومن باطن أعدائك وأمن اعتدائك، ومن أساء جوار رعيتك باخساره[3] وبذل الاذاية فيهم بيمينة ويساره.

واضر ما منيت به التعادى بين عبدائك، أو فى بلد من بلدانك، فسد فيه الباب، واسأل عن الأسباب، وانقلهم بواسطة أولى الألباب، إلى حالة الأحباب، ولا تطوق الأعلام المنون، بهواجس الظنون، فهو أمر لا يقف عند حد، ولا ينتهى إلى عد، واجعل ولدك فى احتراسك، (وصدق مراسك)[4]، حتى لا يطمع فى افتراسك.

ثم لما رأى الليل قد كاد ينتصف، وعموده يريد أن ينقصف، ومجال الوصايا أكثر مما يصف ـ قال يا أمير المؤمنين، بحر السياسة زاخر، وعمر المتمتع بناديك العزيز مستأخر، فإن أذنت فى فن من فنون الانس يجذب بالمقاد، إلى راحة الرقاد، ويعتق النفس بقدرة ذى الجلال، من ملكة الكلال، فقال: أما والله قد استحسنا ما سردت، فشأنك وما أردت، فاستدعى عوداً فأصلحه حتى أحمده، وأبعد فى اختباره أمده، ثم حرك همه، وأطال الجس ثمه، ثم تغنى بصوت يستدعى الإنصات، ويصدع الحصاة، ويستفز الحليم عن وقاره، ويستوقف الطير ورزق بينه فى منقاره، وقال:

---

(١) فى ك : حوارك.

(٢) فى ك : وتحديد.

(٣) فى د : باحساده.

(٤) ساقطة فى د.

صـاح مـا أعطـر القـبول بـنمه	اتـراها اطالـت اللـبث ثمـة
هـى دار الهـوى منى النفس فيها	أبـد الدهـر والامانـى جمـة
أن يكـن مـا تـأرج الجـو مـنها	واسـتقاد الشـذا والافمـة
مـن لطرفـى بنظـرة ولا نفـى	فـي رباهـا وفـى ثـراها بشـمه
ذكـر العهـد فانتفضـت كأنـى	طرقتنـى مـن الملائـك لمـه
وطـن قـد نضـيت فـيه شـبابى	لم تـدنس مـنه الـبرود مذمـه
بـنت عـنه، والنفس من أجل من	خلفـته فـى جلالـه مغـتمه
كـان حلمـا، فـويح مـن أمـل الد	هـر، واعمـاه جهلـه وأصـمه
تأمـل العـيش بعـد أن أخلق الجـ	ـسـم وبنـيانه عسـير المـرمه
وغـدت وفـرة الشـبيبة بالشـ	شيب علـى رغـم أنفهـا معـتمة
فلقـد سـلتك جعـل اللـ	ـه إلى الله قصـده ومأمـه
من بيت من غـرور دنيـا بهـم	يلـدغ القلـب كأثر الله همـه

ثـم أحـال اللحـى إلى لـون التثويم، فأخذ كل فى النعاس والتهويم، وأطال الجس فى الثقيل، عاكفا عكوف الضاحى فى المقيل، (فخاط عيون القوم، بخيوط النوم، وعمر بهم المراقد، كأنما أدار علـيهم الفراقد)[1] ثـم انصرف، فما علم به أحد ولا عرف. ولما أفاق الرشيد جـد فـى طلـبه، فلـم يعلم بمنقلبه، فأسف للفراق، وازر بتخليد حكمه فى بطون الأوراق، فهـى إلى الـيوم تتلـى وتـنقل، وتجلـى القلـوب بهـا وتصـقل، والحمـد لله رب العالمين.

(١) هذه العبارة واردة فى ك، ويقابلها فى الاسكورياك فقط، "فخاط العيون".

مصادر الدراسة والتحقيق

أولا : المصادر الدينية :

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ صحيح البخارى ومسلم.

٣ ـ مسند الإمام أحمد.

ثانيا : المصادر الغوية :

١ ـ لسان العرب.

٢ ـ القاموس المحيط.

ثالثا : المصادر التاريخية :

١ ـ ابن الأثير (٦٣٠هـ/١٢٣٨)م، على بن أحمد أبى الكرم.

ـ"الكامل فى التاريخ" ١٢ جزءا (بولاق ١٢٧٤هـ) أحمد إبراهيم.

٢ ـ الجهشيارى (٣٣١هـ – ٩٤٣م) أبو عبد الله محمد بن عبدوس.

ـ "كتاب الوزراء والكتاب" نشره الأساتذة مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة ١٩٣٨).

٣ ـ جورج زيدان: "تاريخ التمدن الإسلامى" خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢م – ١٩٠٦م).

٤ ـ ابن حجر العسقلانى (٨٥٣هـ – ١٤٤٩م) شهاب الدين بن على. – "الإصابة فى تمييز الصحابة" ٦ أجزاء (مصر سنة ١٩٢٣م).

٥ ـ حسن إبراهيم حسن ـ الدكتور "النظم الإسلامية" (القاهرة ١٩٧٠م ط٤).

ـ القاطميون فى مصر (عن الإنجليزية) ـ المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢م.

٦ـ ابن خلدون (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م – ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد.

ـ "مقدمة ابن خلدون" (بيروت ١٩٠٠م)، نقله إلى الفرنسية دى سيلان، وإلى الإنجليزية روزنتال.

ـ "العبر وديوان المبتدأ والخبر" ٧ اجزاء (القاهرة ١٢٩٤هـ).

٧ ـ صبحى الصالح (دكتور)

ـ "النظم السياسية"، نشأتها وتطورها (بيروت ١٩٦٨ ط٢).
ـ ضياء الدين الريس (دكتور).
"النظريات السياسية الإسلامية" (القاهرة ٦٦-٦٧ط٤).
٨ ــ ابـن طباطـبا (توفى فى أوائل القرن الثامن الهجرى) محمد بن على المعروف بابن الطقطقى.
ـ الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية" (القاهرة ١٩٤٥م).
٩ ـ الطبرى (٣١٠هـ - ٩٠٢م) جعفر: محمد بن جرير.
ــ تـاريخ الأمم والملوك طبعة ذى غويه (لندن ١٨٨١م) ٧ أجزاء (القاهرة ١٣٢٦هـ) ١٣ جزءا.
١٠-عبد الله عنان.
ـ "الدولة العامرية" (القاهرة ١٩٥٨).
ـ "لسان الدين ابن الخطيب" (القاهرة).
١١-ابن قتيبة (٢٧٦هـ - ٨٨٩م) أبو محمد عبد الله بن مسلم.
-"الإمامة والسياسة" جزءان (القاهرة ١٣٢٢هـ) وينسب إلى كاتب أندلسى قدامه (٣٧٧هـ - ٩٤٨م) أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى.
١٢ ـ كرد على.
ـ الإدارة الإسلامية فى عز العرب" (القاهرة ١٩٣٤م).
١٣ ـ ماجد ـ الدكتور عبد المنعم.
ــ "نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر" الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٣م)، الجزء الثانى (القاهرة ١٩٥٥م).
١٤ ـ الماوردى (٤٥٠هـ - ١٠٦٧م) أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصرى.
ـ "الأحكام السلطانية" (القاهرة سنة ١٢٩٨هـ، لندن ١٩٠٦م).
ـ "أدب الوزير" المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك (القاهرة ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م).
١٥ ـ المسعودى (٣٤٦هـ - ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين بن على.
ـ كتاب "التنبيه والإشرف" (طبعة دى غويه) — لندن سنة ١٨٩٣م.

١٦ ـ المقريزى (٨٤٥هـ-١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على.
ـ "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار" جزءان (بولاق سنة ١٢٧٠هـ).
١٧ ـ ابن مماتى (٦٠٦هـ ١٢٠٩م) القاضى الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد ابن أبى سعيد.
ـ "كتاب قوانين الدواوين" (القاهرة سنة ١٢٩٩هـ) نشره الدكتور عزيز سوريال عطية (القاهرة ١٩٤٣).
١٨ ـ ابن منجب (٥٤٢هـ - ١١٤٧م) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على، ويسمى أيضًا الصيرفى المصرى.
١٩ ـ ناجى معروف.
ـ "الشؤون الإدارية والحضارية" (بيروت ١٩٦٠م).
٢٠ ـ ابن هشام (٢١٨هـ - ٨٣٣م) أبو محمد عبد الملك بن هشام أيوب المعافرى الحميرى.
ـ"كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم" ٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٣٢م).
٢١ ـ هلال الصابى (٤٤٨هـ - ١٠٥٦م) أبو الحسن بن المحسن بن أبى إسحاق إبراهيم الكاتب.
ـ "تحفة أمراء تاريخ الوزراء" طبعة هـ . ف. امدروز، وذيله الناشر بفهرس ومذكرات.
٢٢ ـ أبو يعلى.
ـ "أحكام أبى يعلى" (نشر الأستاذ محمد حامد الفقى) (القاهرة سنة ١٩٣٨م).
ـ أبو يوسف (١٩٢هـ - ٨٠٧-٨٠٨م) يعقوب بن إبراهيم صاحب أبى حنيفة.
ـ كتاب "الفقه على المذاهب الأربعة" (طبع دار الكتب المصرية ١٢٤٩هـ - ١٩٣١م).

الفهرس